التجربة الأولى

المطلوب مقابلة على الأصل وتصحيح أول ٢٠١٠/٧/٢٩

الكتاب

في الألفية الثالثة

لا ورق !! ولا حدود !!

محمد عدنان سالم

المحتوى

تقديم

صناعة النشر العربية .. إلى أين؟!

عبد الواحد علواني

تتميز المجتمعات البشرية بقوانينها التي تنظم العلاقة داخلياً بين أفرادها ومؤسساتها وكل مكوناتها من جهة، وتنظم علاقاتها بغيرها من المجتمعات من جهة ثانية، وهذا ما يشكل العقد الاجتماعي بمفهومه العام الذي تصطبغ به عوالم البشر. وهذا الأمر يتعلق بالحقوق أساساً، بل هو في إطار الحقوق تماماً إذا نظرنا إلى الالتزامات والواجبات المترتبة على الفرد والمجتمع على أنها حقوق الآخرين. ولذلك فإن مسألة الحقوق تفصح عن المجتمع وطبيعته وتطور نظمه وتكاملها.. وتفصح عن الإرث الثقافي والفكري والتاريخي والتشريعي والتجربة الحضارية والراهن العلمي والمعرفي والتنظيمي.. إلخ.

وتتجلى أهمية ثقافة الحقوق من خلال أثرها العظيم في استقرار المجتمع وتنظيمه داخلياً وخارجياً.. وبذلك فإنها تمهد الطريق الواعدة وتوفر المناخ الملائم لنمو الإبداع الفكري والعلمي والفني، وكل أوجه الإبداع التي ترتقي بالمجتمع. إنها توثق الصلة بين المبدع والمجتمع عبر شكل مرموق وفاعل وواضح، بل إنها تشكل مقياساً للتفاعل الإنساني السليم، الأمر الذي يجعل حماية الإبداع هاجساً حقيقياً، وفي أولويات المجتمعات المنخرطة في عملية تنمية واسعة.

وحماية حقوق الإبداع ليست وليدة هذا العصر.. إنما كان لها حضور ملحوظ عبر التاريخ، وكان لها طابع متوارث فيها يسمى (سر المهنة) إضافة إلى الأشكال الأدبية الشائعة قديماً.. ولكن هذه الحماية لم تأخذ فلسفتها وإطارها الحقوقي الحديث إلا مع بداية القرن الماضي.. حيث ظهرت التشريعات الناظمة لحقوق الإبداع والتأليف والابتكار وبراءات الاختراع.. وتراوحت بين الدساتير المحلية والاتفاقيات الإقليمية أو التحالفية المجزأة.

ومع تحول الأسواق من شكلها الاستهلاكي إلى شكلها الحديث القادر على المنافسة والتقليد، والمخترق من قبل صائدي الأموال والانتهازيين الذين يثرون على حساب الآخرين بالاعتداء على حقوقهم.. باتت مسألة حماية الحقوق للمبدعين والملكية الفكرية أكثر تعقيداً وخطورة.. الأمر الذي يجعل عالمنا المعاصر ينظر إليها بمزيد من الحزم والجد.. بل أصبح الدفاع عن الحقوق الفكرية من الاستراتيجيات السياسية الأكثر أهمية للدفاع عن المكتسبات الاقتصادية والمعرفية.

وتعقيدات المسألة تأتي من كونها تتراوح بين حدين متطرفين: الحد الأول المتمثل في استباحة الحقوق وعدم الإقرار بها بحجة كسر طوق احتكار المعرفة، وهذا أمر فيه امتحان للثقافة والفكر والحقوق والإبداع، مما يؤدي إلى قتل هذه الجوانب في المجتمعات المنتجة لها، ووأدها في المجتمعات الطموحة!

والحد الثاني يتمثل في الضوابط الصارمة القائمة على أساس الهيمنة العسكرية الاقتصادية والخاضعة للسياسات المهيمنة حيث يقوم واضعوها (وهم من العالم المتقدم بالتأكيد) بوضع قيود وحواجز أمام إمكانية المنافسة، تصل فيها المغالاة إلى درجة منع الكثير من الشعوب من استكناه المعرفة وغرفها، وهذا أمر يمارس حالياً في الكثير من الجامعات والمعاهد العلمية الغربية حيث يتم حظر العديد من الاختصاصات الدقيقة على الطلبة (الأجانب)!

ومع تركز الإبداع في المجتمعات المتقدمة، وضعف إمكانيات دول العالم النامي الذي يشكل أكثر من ثلاثة أرباع سكان المعمورة، تزداد المسألة تعقيداً.. ولذلك فإن البحث عن أسس واقعية لحماية الملكية الفكرية خطوة أساسية، لئلا يحرم المبدع من ثمرة عمله وحقوقه، ولئلا يحرم الطموح من إمكانية المنافسة والمشاركة والتفوق..

وقد كثر الحديث – أخيراً – على الصعيد العربي عن اختراقــات فاحشــة لحقــوق الإبداع، خاصة في مجال النشر وصناعته، مما أضاف إلى الأزمات التقليدية للكتاب وصناعة النشر العربية أزمة جديدة أكثر خبثاً وخطورة.

ولأن الدعوة إلى إيجاد نواظم وضوابط تتطلب أساساً وجود تعاون عربي مشترك.. فإن تحقيق هذا التعاون يشكل بداية لكل ما يمكن رسمه في هذا الصدد. وإذا كان التعاون العربي مطلوباً على جميع الأصعدة.. فإنه أكثر أهمية في هذا المجال لأن الكتاب يمس الجانب الأكثر إشراقاً في الإنسان والإنسانية، ألا وهو الجانب المعرفي / الفكري.

ولعل البحث في أزمة صناعة النشر في العالم العربي يماثل حالة التشخيص التي تســبق العلاج، بل تُعدُّ المرحلة الأهم من خلال (وضع اليد على الجرح) وهذا ما يقوم به الأستاذ سالم في هذا الكتاب.. وهو الذي ما زال منذ أمد طويل يمارس دوراً فاعلاً في سبيل تكوين مؤسسة عربية جديرة بحمل هموم الثقافة والمعرفة والفكر.

ولعل هذا الكتاب يشير بداية إلى تردي واقعنا المعرفي عامة، فنحن نبحث عن ضوابط لأزمة الكتاب الورقي، بينما عالم الورق يؤذن بالرحيل عالمياً. فسعي الأستاذ سالم المقتــرن بالخبرة والممارسة الطويلة، إضافة إلى ثقافته الموسوعية لا ينحصر في إطار الكتاب الــورقي، بل إنه يتجاوز قضية شكل الكتاب إلى الكتاب بشكل عام ورقياً كان أم حاســوبياً، أو أي شكل آخر تفرزه حتمية التسابق التكنولوجي، ولهذا فإن الكتاب – بداية – يصفع الخاملين، ويوقظ الحالمين السادرين، وينبه إلى خطورة إهمال هذا الأمر!

لا شك أن المعرفة قادرة على حلّ المشكلات الكبرى لهذه الأمة، بل لعلــها الخــيط الأخير الذي يزرع الأمل في النفوس، خاصة أننا نقف على إرث حضاري وثقافي ومعــرفي هائل يتيح لنا دخول عالم المبدعين الكبار بقوة.. ولذلك فإن ما يهدد المعرفة إنما يهدد الأمة ومستقبلها.

ولعله قد مضى الزمن الذي نستمرئ فيه الخور والإهمال والإذعان للتصورات الوافدة التي نهش ونبش لها، وهي تكرس الجهل والاستهلاك في واقعنا وتمضــي قــدماً في تقييــدنا وتكبيلنا بالأغلال.. فالعالم المتقدم يتحدث عن حقوقه ويدافع عنها بضــراوة مــن دون أن يحفل كثيراً بحقوق الآخرين، لأنهم غير قادرين على الدفاع عنها. فلا يتعامل مــع المســألة ضمن إطار الإنسانية، إنما في إطار المصلحة الخاصة وبنوع من الاستعلائية.. فالعالم بالنســبة

إليه مناطق نفوذ يتوزعها مع شركائه.. ولذلك فإنه يجب أن يبقى سوقاً للاستهلاك وليس سوقاً للمنافسة.

فالنظر بجدية إلى طبيعة وجودنا في القرن الجديد من عمر البشرية، ووضع تصورات لسوق عربية مشتركة للكتاب، وتنمية القراءة والثقافة وغيرها من المسائل المصيرية، أمور هامة جداً.. وهذا ما يرومه هذا الكتاب الذي يشخص الحالة العربية ويقترح لها بعضاً من الحلول والإضاءات التي تنير الطريق نحو نهضة حقيقية لصناعة النشر العربية.. فالبحث في الخيارات الثقافية هو بحث في الخيارات الكبرى لوجودنا، والأهداف الحقيقية التي يجب أن نرنو إليها جميعاً، والله المستعان.

الفصل الأول

صناعة النشر وتحديات

القرن المقبل

نحن والتحولات الكبيرة

لم يشهد التاريخ الإنساني في رحلته الطويلة تحولات ذات إيقاع مغرق في التسارع، كالذي شهده في القرن العشرين المشرف على الأفول..

فلا يزالون على قيد الحياة، أولئك الذين كانوا يستخدمون الفوانيس للإنارة، والحطب للوقود، وعربات الخيول و (الطنابر) للنقل، والجمال لنقل الحجاج، والنواعير والمكابس اليدوية لمتح مياه الآبار..

ولا يزالون يتحدثون عن دهشتهم لرؤية أول مصباح كهربائي أنار زقاقهم، وأول سيارة مرّت بشارعهم، وأول طائرة عبرت أجواءهم، وأول مذياع جاءهم بأخبار الحرب البعيدة، مثلما فعلت عفاريت الجن بين يدي سليمان.

أما أول مركبة وصلت إلى القمر، وأول سفينة فضاء حطت على المريخ، وأول طبق حطم الحدود وجمع للناس فضائيات العالم، وأول شبكة معلومات كسرت احتكار المعرفة، وأول جهاز خليوي قرّب الأبعاد، فإن الجيل الحاضر قد استقبلها جميعاً بلا دهشة ولا استغراب، وتكيف معها وهو يترقب منها المزيد.

وعلى صعيد العلاقات الإنسانية، جربت البشرية ألواناً من الأنظمة الحرة والدكتاتورية؛ النازية والفاشية والشيوعية، وخاضت حربين عالميتين مدمرتين، وفجرت القنبلة الذرية في هيروشيما وناغازاكي.

وها هي تثوب إلى رشدها، لتتحرر من الأنظمة المناقضة لفطرتها، ولترشّد استخدامها للطاقة في الأغراض المدنية، ولتبحث عن طرق جديدة لحل الخلافات، تنبذ العنف، وتؤثر الحوار، ولتبني — بكثير من الأناة — الوحدة الأوربية الشاملة.

وتجانبها الحكمة وعبرة التاريخ أحياناً، فتدفعها نزعة التسلط وشهوة الاستعباد والتفرد إلى إقامة ما أسمته بالنظام الدولي الجديد.

إن ما يوشك القرن العشرون أن يتركه من منجزات وهو يدلف إلى نهايته، يشكل تحدياً كبيراً للقرن الجديد، الذي يستعد لاستلام راية التقدم البشري.. ويتمثل هذا التحدي في مدى قدرته على الاستمرار في صنع التحولات الكبيرة بالوتيرة ذاتها، أم أنه سوف يخلد إلى الراحة لالتقاط الأنفاس، ولإعادة التوازن إلى البيئة التي لوثتها مداخن القرن المنصرم، وإشعاعاته النووية، وكذلك لإعادة التوازن إلى العلاقات الإنسانية التي أفسدتها نزعات الاستعمار والتعصب وسباق المصالح.

هل سيفيد العالم العربي والعالم الإسلامي من هذه الفرصة.؟

الهم العربي الحاضر لا يدع للعالم العربي مجالاً للتفكير في مستقبله.

والخطاب الإسلامي، خطاب تاريخي (ماضوي) في نماذجه ومصطلحاته ومفاهيمه وتطبيقاته لا يعير المستقبل أي اهتمام. بل هو ينظر إلى المستقبل بتشاؤم ويرى العالم من خلاله متنكساً ماضياً إلى فساده وحتفه.

لا أقصد بالخطاب الإسلامي (الإسلام) – معاذ الله – إنما أقصد خطاب المسلمين الّذين قدر اليوم أن يكونوا ممثليه والناطقين باسمه وحملة رسالته.

لقد وقعوا فيما حذرهم الله تعالى منه، من طول الأمد الذي يورث قسوة القلوب حتى تصبح كالحجارة أو أشد قسوة {وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة: ٢/٧٤].

وما طول الأمد سوى الرتابة، والاعتياد على أداء الشيء نفسه، بطريقة التكرار التي تبعده تدريجاً عن دوافعه ومقاصده، ومن ثم عن إنتاج فوائده وثمراته، حتى يصبح طقساً بلا مردود، وشكلاً بلا مضمون.. وتغدو الصلاة ركعات لا تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويتخلف كل من الصوم والزكاة والحج عن إنتاج مضامينه الاجتماعية، ويصبح الوفاء بكل من العهد والوعد والعقد أمراً مرهوناً بالظروف ومرتبطاً بمشيئة الله، بهتاناً على الله.

ليس عجيباً أن يعتري الفتور والاسترخاء أمة من الأمم فتتخلف عن الركب حيناً.. لكن كبوة العالم الإسلامي طال أمدها فوق فترة أهل الكهف، تحسبهم خلالها أيقاظاً وهم رقود، واتسعت خلالها الفجوة بينهم وبين العالم من حولهم، حتى أنكروه وأنكرهم..

وها نحن اليوم بقايا حضارة توقفت منذ عهد عن العطاء، وعجزت عن المشاركة الفاعلة في المسرح العالمي، واعتراها ما يعتري الشيوخ من التفات عن تخطيط المستقبل وصناعته، إلى انشغال بمعالجة مشكلات الحاضر، واللواذ بأمجاد الماضي عسى أن تنفع أو تشفع.

أليس لهذه الكبوة من نهضة، ولهذه العثرة من إقالة؟

الله تعالى يفتح لنا أبواب الأمل:

{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها} [الحديد: ٥٧/١٧].

{وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة: ٢/٧٤].

لكنه يعلق الأمل على العمل: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١٣/١١].

ويحذر المؤمنين، وهم ما يزالون حديثي عهد بالإيمان، من داء العجز عن التجدد الذي أهلك الأمم السابقة من قبلهم:

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [الحديد: ٥٧/١٦].

فإذا ظل المسلمون على تخوفهم من التجدد، فرحين بما لديهم، يتغنون بأمجادهم، ويتجاهلون الواقع ومستجداته، والمستقبل واحتمالاته، فسيبقون غائبين عن العالم، وعن التأثير في مستقبله.

أما إذا وعوا دعوة الله لهم إلى التغيير، وزودوا شعلة حضارتهم بالوقود المتجدد والمستمر فإن خطابهم التاريخي سيتحول من حديث عن الماضي إلى تخطيط للمستقبل، وإسهام في صنعه، وحضور أكثر فاعلية على المسرح العالمي الذي ينتظرهم بكل تلهف وشوق:

والعشق فياض، وأمة أحمد	يتأهب التاريخ لاستقبالها

أزمة الكتاب وأثرها في صناعة النشر

نستطيع في العقود الأخيرة من القرن الحالي أن نسجل انتكاساً في صناعة الكتاب، يبدو واضحاً على ثلاثة مستويات تتبادل التأثير فيما بينها، وهي القراءة، والإبداع، والنشر.

١ – فعلى صعيد القراءة: تراجع عدد النسخ التي يطبعها الناشر من كل عنوان، إذ على الرغم من تزايد عدد السكان إلى ٢٥٠ مليون عربي، وتناقص عدد الأميين بسبب قوانين التعليم الإلزامي، فإن الناشر بات لا يطبع من أكثر عناوينه رواجاً أكثر من ثلاثة آلاف نسخة، مما يشي بأن أمة (اقرأ) أصبحت لا تقرأ.

ولم تكن كذلك يوم أراد الله بها الخير، وابتعثها لبناء حضارة إنسانية، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ولا كانت كذلك في مطلع القرن وأواسطه، إذ كانت أكثر تداولاً للكتاب، وأكثر شغفاً به واحتراماً له.

ينتحل العازفون عن القراءة لعزوفهم أعذاراً، بعضها واه لا تقوم به حجة، وبعضها لــه وجه لا يلبث أن ينكشف عن حجة داحضة.

فغلاء سعر الكتاب، وعجز أصحاب الدخل المحدود عن شرائه، وازدياد أعباء الحياة، وذهابها بوقت الإنسان، أعذار واهية لو صح من أصحابها العزم لوفروا للقراءة من أوقــات فراغهم ومن كمالياتهم الوقت والمال، أو لتوجهوا إلى المكتبات العامة – التي تشكو الهجران – ليشبعوا نهمهم القرائي.

وتدفق القنوات الإعلامية عبر الأقمار الصناعية، الذي صرف أبصارهم عن القــراءة، يكشف عن فتور الهمة وضعف في الشخصية وخلل في التقويم، فلو أن هؤلاء قدروا لكل أمر قدره، وأعطوا كل ذي حق حقه، لما أسلموا جل أوقاتهم، وباعوا كل حياتهم لهذه القنوات، ولاختاروا منها البرنامج المناسب في الوقت المناسب، وعند ذلك سيكونون قد استفادوا منها وأحسنوا استخدامها، ووظفوها لخدمتهم بدلاً من أن توظفهم لخدمتها.. فإنمــا وُجــدت القنوات الفضائية لتزيد من اختبارات الإنسان، لا لتستعبده وتذهب بجميع أوقاته.

٢ – وفي مجال الإبداع هدأت المعارك الأدبية، والمناظرات الفكرية، والمقالات النقدية، التي كانت تحفل بها الأوساط الثقافية في أواسط القرن، ونضبت بهدوئها القرائح فانكفــأت إلى التكرار والاجترار والاقتباس والمحاكاة، ولاذت بالتراث تستنطقه الأفكار، بدلاً مــن أن ترتكز عليه في بناء الأفكار.

وفي غياب النقد، وتحوله إلى نوع من التقريظ والمجاملات، وفي ظل الاحتكار للحقيقة، ورفض الرأي الآخر، ركدت الحركة الفكرية وتراخت الميول النقدية وتحول القارئ إلى متلقٍّ ملول.

ذلك أن الأفكار لا تنمو إلا باحتكاكها وتصادمها وتعددها، وأن ثقافة الرأي الواحد والاتجاه الواحد مآلها الذبول والفناء.

ومن أخطر العوامل التي أثرت في الإبداع، شيوع القرصنة واستباحة حقوق الملكيــة الفكرية التي حرمت المبدع من استثمار نتاجه الفكري، وتولت ذلك نيابة عنه، لتسلمه إلى هوان الفقر وذل الحرمان، فلا يستطيع مبدع في مجتمعاتنا أن يعيش حياة كريمة مــن نتــاج عمله الفكري.

وكان لذلك أثره المتبادل مع القراءة، فعوز الإبداع كان له أثره في العزوف القرائـــي، والعزوف القرائي كان له أثره في نقص الإبداع.

٣ – وصناعة النشر كان لا بد لها أن تتأثر بدورها بعاملي العزوف القرائي، والعـــوز في الإبداع، إضافة إلى عوامل أخرى قلصت من ساحة نشاطها: فالكتاب المدرسي تولـــت إنتاجه وزارات التربية، ومناهج التعليم الجامعي لم تعد تعير اهتمامـــاً للـــبرامج الجامعيـــة، والرقابات العشوائية المفتقرة إلى المعايير الواضحة والموحدة، والرســـوم الماليـــة والجمركيـــة المفروضة على حركة الكتاب بين الأقطار العربية، وتعامل الدول مع الكتاب بوصفه ســـلعة اقتصادية دون النظر إلى خصوصيته الثقافية، وافتقار صناعة النشر إلى تنظيمات مهنية تعـــنى بتطويرها وإرساء التقاليد ووضع المعايير اللازمة لتحسين أدائها.

كل ذلك أدى إلى إضعاف هذه الصناعة، وقلة عدد الناشرين المؤهلين العاملين فيها.

صناعة النشر وتحدي المعلوماتية

إن أكبر تحد تواجهه صناعة النشر، على مشارف القرن الحادي والعشـــرين، هـــو في تحول الأوعية المعلوماتية إلى الأقراص الممغنطة والوسائط المتعددة.

فهل سيبقى الكتاب الورقي الوعاء المفضل لحفظ المعارف المتراكمة واسترجاعها؟ وهل سيتمكن من الاستمرار في أداء دور فاعل إزاء منافسه الإلكتروني؟ وهل من سبيل للتعـــايش بينهما؟

وإذا لم يكن تعايشهما ممكناً، فما مآل صناعة النشر؟ هل ستنضم إلى قائمـــة المهـــن المرشحة للانقراض؟ أم أنها ستستطيع أن تطور نفسها وتستخدم التقنيات الحديثة لتتحول إلى النشر الإلكتروني؟

سواءٌ أكانت الصورة التي ستستقر عليها هذه الصناعة، ورقية أم إلكترونية، فإني أرى لزاماً عليها أن تسارع قبل حلول القرن الجديد إلى صياغة أهداف وإرساء ضوابط وتأسيس قواعد تصلح أن تكون معايير للجودة في عالم مخطط لم يعد يعبأ بالعشـــوائيين والاتكـــاليين والماضويين.

إن ضبط الجودة في صناعة النشر هو هاجس الاتحاد العام للناشرين العرب، الذي يعمل الآن على توصيف هذه الصناعة، والارتقاء بها لتقوم بدورها الفعال في إنتـــاج الكتـــاب،

وإعداده من كل النواحي القانونية والعلمية واللغوية والفنية، وتزويـــده بكـــل المعلومـــات الوصفية التي تيسر الاستفادة منه للمستخدم، وإخراجه على أحســـن وجـــه يرضـــي ذوق القارئ، واستخدام كل تقنيات الإيصال والاتصال الحديثة للتعريف به وجذب الأنظار التي تكاد تتخطفها الوسائل الإعلامية الأخرى إليه.

الفصل الثاني

رحلة الكتاب

من الوراقة إلى الحاسوب

١ – التحديات التي تواجه الكتاب العربي وسبل تذليلها*[١]

اليوم العالمي للكتاب ولحقوق المؤلف

لقد أعلنوا يوم الثالث والعشرين من شهر نيسان (أبريل) من كل عام يوماً عالمياً للكتاب ولحقوق المؤلف.

ربما أرادوا أن يكرِّموه في شيخوخته، كما يكرَّم العباقرة المبدعون إبان رحيلهم ربما أرادوا أن يعوضوه عن إهمال وحرمان يعانيه، رحمةً بعزيز قوم ذل.

و((للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه)) [صحيح مسلم]

فهل سيفرح الكتاب بحفاوةٍ وإقبال من جديد، يستعيد بهما ذكريات الصبا، وأيام الشباب؟!

أم سيفرح بلقاء ربه، سعيداً بما قدم للبشرية من خدمات، وما اختزن لها من معارف، وما وفر عليها من تجارب، وما أمتعها به حيناً من الدهر؟!

وتشبيه الكتاب بالصائم تشبيه مع الفارق، فلئن استويا في الحرمان، فإن الكتاب هنا هو المأكول وليس الأكل.

لست أول من ينعى الكتاب، فقد نعاه من قبلي الدكتور شاكر مصطفى رحمه الله على صفحات العربي الكويتية.

ولن تدمع عيناي – وأنا أنعاه – حين أجد البديل، قد حمل راية المعرفة، وتقدم بها، فتلك سنة التطور.

[١] المحاضرة التي ألقاها المؤلف في حلقة البحث المنعقدة في الكويت بدعوة من الصندوق الوقفي للثقافة والفكر، ضمن فعاليات احتفالها باليوم العالمي للكتاب وحقوق المؤلف يوم ١٩٩٨/٤/٢٠م.

لكن ما يذيب القلب كمداً، أن أرى الكتاب يسقط بعد أن تراخت عنه أيدي أبنـــاء جيلي وأولادهم، وتسمرت أعينهم على التلفاز، ليستأثر بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، وهم يتابعون مسلسلاته ومسابقاته ومبارياته وحفلاته وأغنياته ودعاياته.

هل عثروا في التلفاز على البديل؟

هل أغنتهم برامجه عن الكتاب، علماً نافعاً، وأدباً راقياً، وفناً مبدعاً، وخلقـــاً حميـــداً، وسلوكاً جاداً، وثقافة راسخة؟

لن أتعجل الإجابة، وأنا أبحث عن التحديات التي تواجه الكتاب العـــربي؛ عواملـــها وأسبابها وطرق تذليلها.

لكنني لا أكتم سراً فأنا أشعر – كلما تحدثت عن أزمة الكتاب – بأني أكرر نفســـي، وأجتر أفكاري وأفكار الزملاء المعنيين بها، حتى سئمت وسئم الناس وسئمت الأزمة ذاتها من كثرة ما عقد لها من ندوات ومؤتمرات ومحاضرات، وكتب عنها مـــن كتـــب ومقـــالات؛ تشخص الداء، وتضع يدها على الجرح، وتصف الدواء، وتصدع بالتوصيات، والأزمة باقية تراوح مكانها؛ تواجه التحديات ذاتها، وتعاني الأمراض والعوامل نفسها.

انعدام روح الفعالية

المشكلة الأخطر في نظري هي (انعدام الفعالية) الـــذي يعتـــري المجتمعـــات إبـــان استرخائها الحضاري، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بمصطلح (الكلالة): {وَضَرَبَ اللَّـــهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْـــهُ لا يَـــأْتِ بِخَيْرٍ} [النحل: ١٦/٧٦] غير أن كلالتنا ليست بكماء، بل هي كثيرة الصياح والعويـــل، تكتفي بهما للتنفيس عن كروبها، ولا تجاوزهما إلى شيء من المتابعة والتطبيق.. وهكذا ينتهي العمل في ندواتنا بإصدار البيان الختامي بعدها، ويقاس نجاحها بمقدار ما يكـــتظ بـــه مـــن توصيات، ويتنفس منظموها بعدها الصعداء وينعمون بقسط من الراحة، ريثمـــا يبـــدؤون بالإعداد لندوة قادمة، حين نرى الأمم الجادة التي يمدها (الزخم الحضاري) بالفعالية وإرادة التنفيذ، يبدأ العمل لديها عند انتهاء الندوات وصدور التوصيات.

ولقد لحظ القرآن الكريم هذا الارتباط بين الفعالية والحضارة، وحذر من القول الذي لا يقترن بالعمل {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (*) كَبُرَ مَقْتاً عِنْـــدَ اللَّـــهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٦١/٢-٣].

ومما يندرج في إطار الفعالية وانعدامها، والانفصال بين القول والعمــل، فيمـا نحــن بصدده من ظاهرة (العزوف القرائي في المجتمع العربي)، أن نرى الأمم المتقدمة تهتز عنــد ظهور أي هبوط في مؤشرات القراءة لديها، فتدعو جميع المعنيين بشؤون القراءة من تربويين وإعلاميين وعلماء متخصصين، وتوزع الوظائف بينهم لرأب الصدع وسد الخلل.. حين لا نرى هذا الأمر على فداحته عندنا يؤرق أحداً، ولئن أرَّق أحداً فلن يعدو حركتــه لتنظــيم ندوة أو مؤتمر.

وإن شئتم أمثلة على هذه الكلالة فهاكم (الاتفاقية العربية لتيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي)، التي أقرها مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، في دورتهم السادسة المنعقدة في دمشق في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل ١٩٨٧م)، ورحب بهــا المؤتمر العام لمنظمة الثقافة والتربية والعلوم (ألكسو) في العام ذاته؛ أحد عشر عاماً بتمامها مضت على هذه الاتفاقية لم ينفذ منها بند واحد من بنودها السبعة عشر..

بل إن مزيداً من الرسوم المالية، ومزيداً من القيود قد فرض على الكتاب منــذ ذلــك الحين، حتى بات انتقاله بين الدول العربية أصعب من انتقال كل السلع الأخــرى، وأشــد صعوبة وعنتاً من انتقال الأشخاص.

قبس من نور

وها أنذا قد لمحت في حلقة النقاش هذه، التي يقيمها الصندوق الوقفي للثقافة والفكــر نوراً فقلت كما قال موسى {لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النّارِ هُدَىً} [طه: ٢٠/١٠].

فأن يقوم للثقافة والفكر صندوق وقفي، نوع من الفاعلية ما عهدناه في أوقاتنا التي أتى عليها حين من الدهر لم تكن فيه لتعنى بغير الأشكال والزخارف والمباني، وها هي اليوم تعود للتوجه نحو المضامين والقيم والمعاني.

وأن يحمل الصندوق الوقفي همَّ الكتاب، ويهب لنجدته، ويبتكر الأساليب الكفيلــة بإنعاشه، كي يستأنف دوره في انتشال الأمة من كبوة طال أمدها، وجه ناصع من وجــوه الفعالية يضيء بوارق الأمل.

وأن يتحرك الصندوق الوقفي للثقافة والفكــر في الميــدان: مهرجانــاتٍ ونــدواتٍ ومسابقاتٍ واستطلاعات رأي لتوضيح المسار، ووضع الصوى على الطريق.. قــبس مــن

الفاعلية يزيد في إيمان المرء بقدرة الله تعالى على إحياء الأرض بعد موتها، وعلى تليين القلوب بعد قسوتها، مهما طال عليها الأمد.

فلنمضِ في استطلاع التحديات التي تواجه الكتاب.

التعريف بالكتاب

ربما كان من الضروري هنا أن نحدد المصطلح، فالكتاب الذي نعالج أزمته إنما هو الوعاء الذي يختزن المعلومات ثم يعيدها للمستخدم كلما طلب منه ذلك، وهو في مرحلته الحاضرة، كتاب وراقي مطوي كطي السجل، طبعت المعلومات فيه على صفحات، تقلبها كيف تشاء.

لقد ظل الكتاب (بهذا المعنى الاصطلاحي) آلاف السنين المصدر الوحيد الذي يزود الإنسان بكل ما يحتاج إليه في شتى المجالات المعرفية والإعلامية والترفيهية، يقدمه له بكل الألوان الأدبية؛ مقالة، وقصة، ورواية، ومسرحية، وقصيدة شعرية، ومعادلة رياضية، وبيانات علمية، وجداول إحصائية، ورسوماً وخطوطاً بيانية، ويتشكل له بأشكالٍ وأحجام وأغلفة مختلفة، ليغريه بالإقبال عليه والاطمئنان إليه، مثلما تتزين العروس لزوجها لكي تكون له الصاحب الأمين، والصديق المسعف في كل حين، والودود الولود، تأخذ منه لتعطيه المزيد.

هكذا توطدت العلاقة بين الإنسان والكتاب فكان له خير جليس وخير أنيس في ساعة الوحدة، وخير صاحب في السفر والغربة، ((إن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه)) كما قال الجاحظ في الحيوان.

وهكذا استطاع الكتاب أن يكون مصدر الكلمة المكتوبة والمنطوقة على السواء، ينهل منه العلماء والخطباء والأدباء والشعراء والقراء، ثم يردون إليه ما أخذوه منه مشفوعاً بإبداعاتهم وعطاءاتهم.. ينمون به ثم ينمو بهم، حتى بات سيد الكلمة بشقيها التعليمي والإعلامي على السواء.. لا ينافسه عليهما منافس.. وكان ملء السمع والبصر.

العزوف القرائي

ثم أخذت عوامل الحت والاستلاب في (العالم) تنتقص من دور الكتاب حين أخذت المعلومة السريعة طريقها إلى القارئ والمستمع والمشاهد عبر الصحافة والإذاعة والتلفاز.. لكن الكتاب في (وطننا العربي) أخذ يشعر بالهجر منذ شح عدد طلابه بفعل جائحة الأمية التي ضربتهم، تبعه شعور بالجفوة من النفر القليل الذي بقي له بفعل الأمية اللاحقة التي عصفت بهم فأبعدتهم عن الكتاب بعد مغادرتهم مقاعد الدرس والتحصيل.. وهو ما اصطلح عليه مصطلح (العزوف القرائي) الذي يشكل التحدي الأوّل في أزمة الكتاب (العربي).

وينتحل العازفون عن القراءة لتسويغ عزوفهم أعذاراً لا تقوم بها حجة، ولا تستر عورة، من ذلك غلاء سعر الكتاب، وانخفاض مستوى الدخل، وضيق ذات اليد، وضيق الوقت، وتعقد مطالب الحياة.. ويقيني أن لو صح منهم العزم وصدقت النية لوجدوا للقراءة الوقت والمال، وذللوا لها كل الصعاب.

وإعادة بناء المجتمع القارئ، مسألة تحتاج إلى جهود متنوعة تستنفر الأسرة والمدرسة والمجتمع ووسائل الإعلام، وإلى أن يقدر لهذه الجهود أن تتضافر، فلن تضيع أعمال المخلصين والمشفقين على الكتاب سدى، ولن تتخلف عن إنتاج آثارها العميقة في سلوك الأجيال.

قيود الرقابة والحجر الفكري

وتشكل قيود الرقابة التحدي الثاني للكتاب، فهي لدى معظم الأنظمة العربية، مسألة سيادة ومسألة ثقافة، وهي بهاتين الصفتين لا تحتمل المساومة، ولا النقاش، ويصدر الحكم فيها على الكتاب في معظم أرجاء الوطن العربي مبرماً، وغير معلل، ولا يخضع لأي من طرق الطعن أو الاستئناف أو التظلم، وأبدياً لا يسقط بالتقادم، ولا يتبدل بتبدل الظروف والأحوال، ومزاجياً لا يستند إلى أيٍّ من المعايير، وعشوائياً مثل المنايا من تصب تمته، ومن تخطئ يعمَّرْ فيهرمْ.. وعلى الكتاب أن يسلك طريقاً محفوفاً بالمخاطر بين هذه الأنظمة الرقابية المتباينة، فإذا قدرت له النجاة من براثن الرقيب في بلده، فليجرب حظه مع أعين الرقباء الساهرة في البلدان الأخرى، فستفتح له أبواب وتغلق أبواب، فلا يدري كيف فتح هذا ولا كيف أغلق ذاك.. ويبدأ تجربة حبس الأنفاس وهو ينتقل متوارياً في حقيبة مسافرة، مثل أي متهم مريب يكاد يقول خذوني.. فربما أخذ بجريرة عنوانه، وربما أخذ بجريرة اسم مؤلفه، وربما أخذ بجريرة اسم ناشره، وربما ضبط متلبساً بجريمة رسم حدود متنازع عليها بين

بلدين، أو إطلاق اسم على وادٍ أو جبل أو بحر أو خليج يقبله أحدهما ويرفضه الآخر.. وربما وربما.

لكن الأنفاس المفعمة بحب الاطلاع، والتواقة إلى ممارسة حقها في القراءة الحـــرة دون وصاية، وتزداد رغبة وقوة وتطلعاً، كلما أمعنْتَ في حبسها، شأن المياه الجارفة تبحث عـــن منقذٍ لها عبر السدود مهما أحكمتها في وجهها، فأما أن تعلوها أو تلتف مـــن حولهـــا أو تحطمها ماضية في أرض الله بلا سدود ولا عوائق.

وحب الاطلاع طاقة زوَّد الله تعالى الإنسان بها وسيلة إلى تحصيل المعارف وتنميتـــها، إذا أتت منعته من تفريغها ازداد أوارها، حتى قيل إن كل ممنوع مرغوب، وكل محجـــوب مطلوب.. وفطن لذلك بعض العارفين فاستخدموه وسيلة للترويج وأطلقوا شائعات المنـــع لبعض كتبهم، فما إن يتهامس الناس بأن كتاباً سوف يسحب من الأسواق، أو أن قـــراراً يمنعه قد يصدر، حتى يتسابقوا لاقتنائه، ويتفننوا في الاحتيال للحصول عليـــه، بـــل إن دوراً بارزة للنشر قد اتخذت (المنع) شعاراً لها، ضمنته إعلاناتها ومطبوعاتها في عبـــارات تـــثير فضول القارئ، وتظهرها بمظهر المتحدي المستنير: ((خير جليس كتاب مصادر.. خـــارج الرقابة داخل الثقافة.. مواطنون في جمهورية الكتابة لا رعايا في دولة الرقابة.. مـــع إبـــداع الكاتب وحرية الكتاب.. كاتب بلا قيد، قارئ بلا قيد.. كتب تقول لا في عصر نعم)).

ومن عجب أن أنظمة الرقابة إنما تفرض وصايتها على القارئ بحجـــة حمايتـــه مـــن الانحرافات الفكرية والحرص على توفير أمنه الثقافي، وهي بذلك تتعامل مع القارئ بوصـــفه قاصراً غراً عاجزاً عن تمييز الحق من الباطل، والرشد من الغي، والهدى من الضلال.. فهـــل كان الرقيب (الموصي) أبعد نظراً، وأحد بصراً، وأنضج فكراً من القارئ (القاصر)؟!

وهل كانت أنظمة الرقابة تتوخى أمن القارئ الثقافي، أم أمنها السياسي؟

لقد صاغت من اتجاهها الفكري الأحادي قالباً أرادت أن تحبس فيه العقول، وأقامت حول أعين الناس حواجز تمنعها من النظر في غير اتجاهها الواحد، وصاحت بالنـــاس كمـــا صاح فرعون من قبل: {ما أُرِيكُمْ إِلاّ ما أَرَى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاّ سَـــبِيلَ الرَّشَـــادِ} [غـــافر: ٤٠/٢٩]، فماذا كانت النتيجة؟! وما كان الحصاد؟!

لنستنطق تجاربنا القريبة جداً فقد كان الكتاب حتى أوساط القـــرن المشـــرف علـــى الأفول، حراً؛ يصدر بلا رقابة، ويتحرك بلا قيد، ويقُرأ بلا وصاية.. فازدهرت بحريته الحركة

الثقافية، واحتدمت المعارك الأدبية، ومارت القرائح بالإبداع، وسطعت نجوم في الأدب والفكر؛ فكان العقاد والمازني والرافعي وطه حسين والزيات والطنطاوي...

وشهد المجتمع قارئاً يبحث عن كتاب.

ثم أخذت الرقابات والوصايات الفكرية تظهر على الساحة العربية، وتبتكر أساليب الحجر، إمعاناً منها في الحفاظ على ثقافة الجيل، فأسهمت في وأد الإبداع، وتجميد حركة الأفكار، وركود معارك النقد، وبركودها ذبلت أزهار الثقافة، وكفت نجوم الأدب عن التألق، وها نحن أصبحنا على مشارف قرن جديد موّار بالأفكار والتحولات نشهد في مجتمعاتنا العربية كتاباً يبحث عن قارئ.

ليس في ذلك شيء من الغرابة فبارقة الحقيقة لا تنقدح إلا بتصادم الأفكار، وثقافة الاتجاه الواحد عاجزة عن التكاثر والنماء، وما لها من مآل غير الشيخوخة والفناء.

و لم تكن الأنظمة العلمانية التي تدعي (التنوير) أقل تشدداً في نبذ الفكر المخالف ومنع الكتاب الآخر من الأنظمة المتدينة.

وهب أن مجتمعنا اشترك في الوصاية عليه، في وقت واحد، تياران فكريان مختلفان؛ علماني وإسلامي، كل منهما يرفض فكر الآخر، ويرى فيه الشر المستطير والضلال المبين، فماذا يمكن لهذا المجتمع أن يقرأ؟!

حين اختار الله سبحانه وتعالى هذه الأمة لحمل رسالته الربانية الخاتمة إلى البشرية، كان النداء الأول الذي وجهه إليها: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ٩٦/١]. فكان ذلك إيذاناً بأولوية القراءة في شروط النهضة والتحضر.

لكن الوحي الإلهي لم يكتف بتوجيه نداء (اقرأ) بل هو قد مهد السبيل لبناء مجتمع قارئ مؤهل لحمل الرسالة، فحرر الإنسان من كل أشكال الوصاية؛ آبائية كانت أم دينية أم سياسية:

{وَكَذَلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّ قالَ مُتْرَفُوها إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنّا عَلَى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (*) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ} [الزخرف: ٤٣/٢٣-٢٤].

{إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة: ٩/٣٤].

{وَقالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا} [الأحزاب: ٦٧/٣٣].

وحدد للرسل مهمتهم {وَما عَلَيْنا إِلاّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [يس: ١٧/٣٦].

وحذرهم من الإكراه في الدين {لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦/٢]، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩/١٠].

ثم أن القرآن الكريم – بعد أن حرر الإنسان من كل أشكال الوصاية والحجر والإكراه – منحه الثقة الكبيرة بعقله {وَقالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١٠/٦٧]، ووضع له قانون الزبد مصفاةً لتنقية الأفكار ونفى خبثها {فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [الرعد: ١٧/١٣].

وإذا كان لي من عذر في إطالتي الحديث عن مشكلة الرقابة، فهو أني أنظر إليها بوصفها صداً عن السبيل الذي اختطه الله تعالى لعباده كي يسيروا في مدارج الحضارة، وجوراً على حق الإنسان في الاطلاع والمعرفة، وعاراً لا يليق بإنسان عصر المعلومات والاتصالات أن يتلبس به.. وأنا أتطلع بشوق وحرقة إلى اليوم الذي تتحرر فيه أمتي من هذا العار، وأنا ضمين لها أن أمنها الثقافي سيكون مستتباً ولن يصيبه مكروه، بل سيكون أكثر ازدهاراً وحيويةً وبهاءً، إلا إذا كان مفهومنا للأمن الثقافي يقوم على الاكتفاء الذاتي بما تملكه من أفكار، وتوفير الصمت الكافي من حولها مخافة أن يعتريها شيء من القلق، وتجميدها حتى لا تتعفن، ثم تحنيطها كي تحافظ على شكلها ومظهرها.

إنني لعلى يقين من أن منع الرأي الآخر من التعبير عن نفسه، دليل فاضح على إفلاس فكري لدى الطرف المانع، وعجز عن مقارعة الحجة بالحجة، وعيّ عن البيان.

كما إنني على يقين من أن قرارات المنع الصادرة عن أجهزة الرقابة قد أصبحت عديمة الجدوى أمام التطور المذهل لتقنيات الاتصال ووسائل النسخ المباشر أو المهتوف، والبث الفضائي الذي اخترق الحدود، وتجاوز الحواجز.

وأن إطلاق حرية التعبير وإلغاء الرقابة وربطها بالقانون والقضاء لن يضير الأنظمة السياسية والتيارات الفكرية، ولن يصيبها بأي سوء أو مكروه، ولسوف يسهم في الكشف عن الحق وزيف الباطل، ويكون في مصلحة الفكر والثقافة والكتاب، وعندي على ذلك ألف دليل.

قرصنة النشر، واستباحة حقوق الفكر

إن شيوع عقلية الاستباحة لحقوق الملكية الفكرية، الذي يسهم في تشجيع قرصنة النشر ويقتل روح الإبداع الفكري، يشكل التحدي الأخطر للكتاب.

ذلك أن علامة (C) التي تعني أن جميع الحقوق محفوظة لأصحابها، لا تعني شـيئاً في بلادنا، فلا المجتمع يؤاخذ على انتهاكها، ولا القضاء يتمتع بالكفاءة اللازمة لفرض الاحترام لها، ولا الإدارة تتحرك لصيانتها، ولا وسائل الإعلام تلفت النظر إلى أهميتها..

بل إن القرصان كثيراً ما أصبح يرتدي جبة الواعظ، ويتزيا بزي الرهبان، فيدعي خدمة العلم الشريف، وتيسير الكتاب وراقياً كان أم إلكترونياً بالسعر الأقل، فيجد في المجتمع مـن يصدقه ويحمد له صنيعه، وهو لا يدري أنه قد غدا شريكاً له في الإثم..

ذلك أن تكلفة الكتاب أي كتاب تتألف من عنصرين أساسيين: أولهما الجهود الفكرية التي يبذلها المبدعون من المؤلفين الذين يسهرون ويأرقون، ومن الناشرين الـذين يُخرجـون وينفقون. وثانيهما الشكل المادي الذي يستوعب تلك الجهود الفكرية مـن ورق وأحبـار وأعمال يدوية تصنع الوعاء.. فالثمن الذي يدفعه المشتري للقرصان لا يمثل غير قيمة الوعاء، وفارق السعر الذي يوفره ما هو إلا قيمة الأعمال الفكرية التي تملأ الوعـاء مضـافاً إليهـا السحتُ والربح الحرام الذي يأكله القرصان.. هل يكون مثله إلا كمثل امـرئ يشـتري صندوقاً فارغاً بثمن باهظ لأنه يحمل علامة شركةٍ ذائعة الصيت، ثم يذهب إلى مستودعات الشركة ليملأ صندوقه من منتجاتها بلا ثمن بحجة أنه يملك الوعاء، كيف ستتعامل معه هذه الشركة.

إن قراصنة النشر لا يتعاملون مع الإبداع في أي مرحلة من مراحله، إنما يسطون على الكتاب بعد أن يكون قد استوى على سوقه فكرةً وإخراجاً، فينهبونه ويعبئونه بأوعيتـهم المقلدة، تاركين أصحاب الإبداع يتجرعون مراراة الحرمان، على مرأى ومسمع من المجتمع، من دون أي صرخة استنكار، بل بموافقة اجتماعية تبارك وتشجع. هل يمكن لهذا الإبداع أن يستمر في عطائه، ضمن مجتمع يخذل المبدعين ويصفق للقراصنة؟

ولكني أزيد الأمر إيضاحاً، اضرب مثلاً؛ ناشراً قرر أن يحيي عملاً تراثياً كـبيراً، جمـع مخطوطاته من أطراف العالم، ثم حشد له لفيفاً من كبار المحققين والمحـررين المتخصصـين،

وعهد بإخراجه إلى عدد من الفنانين والمخرجين المبدعين وأنفق على ذلك كله الملايين، حتى إذا طرح الكتاب في السوق، تلقفه القرصان، فاشترى منه نسخة واحدة وصوَّرها بشحمها ولحمها، متخففاً من كل ما أنفق الناشر من ملايين في إعدادها، ثم أغرق الأسواق بالكتاب بسعر أقل، هل سيجرؤ هذا الناشر أن يعيد الكرة في عمل مماثل لإنتاج موسوعة أو معجم؟

وإذا انسحب الناشر والمؤلف من السوق وأحجم كل منهما عن الإبداع منكفئاً إلى ميدان آخر يعيشه، فهل سيكتفي المجتمع بما يجتره له القراصنة من فكر الماضي؟ هل يعيش مجتمع من دون إبداع؟

الكتاب بين إدمان التحديات، وصدمة المعلوماتية

لقد نشأ بيننا وبين كل ما أتينا على ذكره وما لم نأت من تحديات، نوع من الإدمان، حال بينها وبين إنتاج مفاعيلها المرجوة، حسب نظرية توينبي التي ترتب نشوء الحضارات على مدى الاستجابة للتحديات، أو نظرية مالك بن نبي التي ترى في الصعوبات علامات على النمو.

بل إننا ألفنا التحديات وقبلناها، وتبلدت أحاسيسنا تجاه الصعوبات وتعايشنا معها، حتى أصبحت تشكل جزءاً ثانياً من ثقافتنا، نتحدث عنه عام ١٩٩٨م تماماً مثل ما كنا نتحدث عنه عام ١٩٤٨م، لم تستطع خمسون عاماً أن تغير حرفاً واحداً من خطابنا، غير أن خطابنا قبل خمسين عاماً كان مصحوباً بالأمل في التغيير، والثقة بقدرتنا على المواجهة.

الجديد المثير في الأمر الآن، هو أننا نجد أنفسنا فجأة، في خضم المعلوماتية، تنهمر علينا المعلومات من السماء عبر الفضائيات والأقمار الصناعية، وتنفجر بها الأرض من تحتنا عيوناً عبر الحواسب وشبكات الإنترنت، فهل صنعنا الفلك؟ وهل أعددنا السفينة التي سنلوذ بها إذا فار التنور، وارتفعت أمواج المعلوماتية لتقتلعنا مع عرينا الثقافي، ومشكلاتنا المزمنة، وأساليبنا البالية، ونظرياتنا التربوية، وكل مألوفاتنا وتقاليدنا وأعرافنا؟

ماذا بعد طوفان المعلوماتية ؟

المعلوماتية كما عرفها حسن م. يوسف في مجلة pc عدد شباط/ فبراير ٩٨ ((علم صياغة المعلومات وتخزينها واستعادتها)).

يتم بتخزين المعلومات حالياً على الأقراص الليزرية المضـــغوطة CD- Rom وقريبـــاً أقراص الفيديو الرقمي DVD.

ويبلغ الطول الكلي لمسار التخزين الحلزوني في قرص DVD أحد عشر كيلو متـــراً، يتسع حالياً ٣٤٠ ألف صفحة فولسكاب من المعلومات، والعمل جار على تطويره ليتســـع لأكثر من ٢٦مليون صفحة.. والحبل على الجرار (حسب حسن م. يوسف في مجلـــة PC عدد كانون الثاني/ يناير ٩٨) أي إن نحو ٥٠٠ مجلد في كل مجلد ٧٠٠ صـــفحة يمكـــن تخزينها حالياً على قرص ليزري لا يتجاوز وزنه ١٥غراماً ولا يتعدى قطره ١٢سم، وهـــي قابلة للاسترجاع بسرعة كبيرة ومذهلة.

كما إن تطور التطبيقات السمع – بصرية للأقراص المبرمجة لا يقل عن التطور في مجال طاقتها التخزينية، مثل تخزين الصوت والصورة والحركة والأفلام والألعاب.

وتقدم الفضائيات برامجها ليل نهار وتعبر القارات والحدود لتوسع من خيارات المشاهد بين عشرات الفضائيات ومئات البرامج وأنواع المعلومات.

أما شبكة إنترنت، وتطوراتها المذهلة، وآفاقها الواعدة، فقد ربطت العـــالم بشـــبكة معلومات عنكبوتية، قربت الأبعاد، ووثقت الأواصر، ويسرت الاتصـــالات عـــبر البريـــد الإلكتروني، وزاد عدد مستخدميها في العالم عن خمسة وثمانين مليوناً، وأتاحت فرصاً خيالية لإقامة مؤسسات كبيرة عبر مواقعها الوهمية، مثل موقع أمازون الذي يضم مليونين ونصف مليون عنواناً، يمكن لأي زائر لهذا الموقع أن يطلب منه حاجتـــه بـــالعنوان أو المؤلـــف أو الموضوع أو الناشر فيلبيه بكل سهول ويسر.. ويوشك أن تقوم إنترنت بإسالة المعلومات بين مستخدميها كما يسري النور عبر أسلاك الكهرباء.

فهل فكرنا في الآثار التي ستتركها المعلوماتيـــة في كـــل جوانـــب حياتنـــا الثقافيـــة والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية؟!

خصائص المعلوماتية والنتائج المترتبة عليها

ولعل من أبرز خصائص المعلوماتية:

١ – اعتمادها على ثروة المعلومات والعمل الفكري، مما سترتب عليه:

آ – تبدل في معايير وموازين ارتقاء الأمم والشعوب، التي سوف تقاس بما تملكه هذه الأمم من ثروة المعلومات، لا بما تملكه من ثروة المال وترسانة السلاح.

ب – تراجع في العمالة اليدوية وتضاؤل في قيمتها، إزاء تقدم العمالة الفكرية وتصاعد الطلب عليها.. وبذلك سيتخلص الإنسان تدريجياً من الأعمال العضلية التي لم يخلق من أجلها، وينصرف إلى الأعمال الفكرية التي ميزه الله تعالى بها {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها} [البقرة: ٢/٣١].

٢ – تحررها من قيد المكان، ويترتب عليه:

آ – تمازج الأمم، وتعارف الحضارات، وبروز فكرة القرية العالمية (العولمة)، وتعذر تشكيل الكيانات القومية بمعزل عن الأسرة الدولية.

ب – إمكانية تأسيس مراكز للأبحاث وإنتاج المعلومات والبرمجيات في أماكن متباعدة، والاستفادة من فروق أسعار العمالة الفكرية، من دون حاجة لجمعها في مكان واحد.

٣ – ضآلة الحيز الذي تشغله بالنسبة إلى ضخامة حجمها، وسهولة التصنيف والتخزين والاسترجاع، وإقامة الشبكات، مما يترتب عليه:

آ – تراجع المصادر الأخرى للمعلومات، مثل الكتاب الورقي، والفيلم، والاستغناء عنها تدريجياً.

ب – الاستغناء التدريجي عن الورق في المعاملات المكتبية الداخلية، وفي المراسلات ليحل محلها ما أطلق عليه (مكتب بلا ورق)، مما دفع الدكتور محاضر رئيس وزراء ماليزيا إلى التخطيط لإنشاء قرية إلكترونية نموذجية بلا ورق، حالت الأزمة الاقتصادية الأخيرة دون تنفيذ خطته.

ج – زوال الحاجة إلى الأبنية الواسعة لإنشاء المشاريع الكبيرة حيث يصبح بالإمكان إنشاؤها على موقع وهمي في شبكة إنترنت، مثل مشروع (أمازون) الذي يستوعب ٢.٥ مليون عنوان، وسوق (ياهو) الذي يرتاده (٢٦) مليون زائر يومياً، مستغنياً عن أماكن العرض ومقتصداً في مستودعات التخزين، مما يسهم إلى حد كبير في الاقتصاد بالنفقات.

٤ – إضعاف الثقة بالمستندات والوثائق، نتيجة القدرات الإلكترونية الهائلة على التصحيح والتعديل ودمج الصور والتواقيع، وما يترتب على ذلك من ضرورة البحث عن وسائل

جديدة للتوثيق، غير التوقيع والتسجيل الصوتي والصورة الضوئية أو المطبوعة، ومن تعـــديل جوهري في قانون البينات.

٥ – سهولة الاتصال والتخاطب ونقل المعلومات، مما قد يترتب عليه:

آ – تراجع دور المكتبات العامة، حيث أصبح بالإمكان حصول الباحث على المراجع والمصادر في مترله أو مكتبه بسهولة ويسر.

ب – تبدل في طرائق البحث، والتحقيق، والتأليف.

ج – تقلص في دور المدرسة والجامعة، نظراً لإمكانية التواصل بين مراكز التعليم وطلبة العلم دون حاجة للالتقاء المباشر.

د – الاستغناء عن وسائط النقل البطيئة والمكلفة، والتحول إلى وسائط النقل الفضائي والضوئي والأرضي الأقل كلفة.

٦ – شيوع المعلومات وتخطيها الحواجز، وسهولة الحصول عليها دون عوائق مما ســينتج عنه:

أ – كسر احتكارات المعرفة، وإتاحة فرص متكافئة لامتلاكها أمام الغني والفقير على السواء.

ب – التحرر من الوصايات الفكرية بكل أنواعها، نظراً لعجز أنظمة الرقابة عن تطبيق قراراتها بمنع بعض الكتب، وستصبح هذه القرارات، مع تدفق المعلومات فضائياً وإلكترونيـــاً بلا رقيب، نوعاً من العبث الذي يبعث على السخرية، فضلاً عن إمكانيات خرق قراراتهـــا عن طريق النسخ المباشر أو المهتوف، مما سيؤدي بدوره إلى:

ج – تعذر التقوقع الإيديولوجي، نتيجة الاطلاع على الرأي الآخر، وفـــتح أبـــواب الحوار معه، وتنشيط العمل الذهني والمحاكمات العقلية، وحركة النقد.

د – كسر حالة الجمود الفكري لدى بعض مراكز التربيـــة والتعلـــيم، واضـــطرارها لمواكبة ركب التطور والتقدم، تحت ضغط وعي المتلقي وتفتحه بســـبب تعـــدد مصـــادر المعلومات المنهمرة عليه، والتوسع في عدد الخيارات الفكرية لديه.

هـ- تراجع ثقافة السلطة وتراخيها، إزاء تقدم ونمو سلطة الثقافة.

و – تبدل في أذواق المتلقين، حيث أصبح بعضهم – كما حـــدثني – مشـــدوداً إلى الندوات الحوارية والمناظرات عبر الفضائيات، بعد أن كان مولعاً بالأفلام الأجنبية.. ومـــن

يدري لعل أساليب مشوقة تتبعها الفضائيات تحفز المشاهد العازف عن القــراءة والتــزود بالمعلومات إلى الإقبال عليهما والشغف بهما.

رب قائل يقول: إن بيننا وبين الدخول في عصر المعلومات أمداً طويلاً، وإن ما تأتينا به المعلوماتية، ليس دائماً هو الأصح والأبقى.

وأقول: لقد سبق أن قابلنا كل المستجدات بالرفض، ثم قبلناها وألفناها، وأصبحت من ضرورات حياتنا.. هكذا كان حالنا مع السيارة والطيارة والهاتف والمذياع والتلفاز وأطباق الفضائيات..

وهذه هي حال الإنسان مع كل جديد، والإنسان عدو ما يجهل.

وللتقنيات الجديدة سلبيات كثيرة، لكن القانون الإلهي كفيل بتصفية خبثها والإبقــاء على ما ينفع الناس منها:

{فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [الرعد: ١٣/١٧].

وأرى أن التقنيات الجديدة قادمة إلينا بأسرع مما نتصور، وذلك لسببين:

١ – أن التقنيات الجديدة تدخل على الإنسان المعاصر مصحوبة بزخم إعلامــي كــبير يروج لها، يكاد يقرع سمع الإنسان وبصره في كل أحواله.

٢ – أن وتيرة التسارع في تطور التقنيات الجديدة تكاد تكون مذهلة خلافــاً للوتــائر المتراخية والمتباعدة التي كانت تفصل بين ظهور التقنيات المستجدة وبين استقرارها في حياة الناس.

على جسر العبور والانتقال إلى المعلوماتية

إن ذلك كله مما يدفعنا إلى ضرورة مواكبة التطور، واغتنام فرصه المتاحة لنا، والإسراع بتكييف وسائطنا وأساليبنا التربوية معها، وإخضاع جميع المتغيرات والمستجدات إلى دراسات نفسية واجتماعية وتربوية معمقة، من أجل أن ندخل في عصر المعلومــات علــى هــدى وبصيرة، قبل أن يفوتنا الركب، فيلقي بنا في زاوية من زوايا التاريخ المهملة، لا تلبــث أن تتحول بنا إلى كهف تفصله عن العالم هوة يصعب ردمها، ويفقد فيه ورقُنا قوته الشــرائية، مثلما يفقد خطابنا لغته المشتركة مع الآخرين، مهما تلطفنا في الخطاب وحاولنا أن نتســتر بتخلفنا حتى لا نشعر به أحداً.

لم يعد بوسعنا الآن، ونحن نبحر في خضم المعلوماتية إن لم أقل في طرقاتها أن نجتر مشكلاتٍ للكتاب لم نفلح على مر السنين بمعالجتها، ولا أن نتلهى بالدفاع عن الكتاب الورقي، والتغني بمزاياه، ونظم قصائد المديح له.. فقد يذهب الورق قريباً إلى متاحف التاريخ، يحكي لأحفادنا مرحلة من مراحل استيعاب المعلومات.

ففي البدء كانت الذاكرة، وبعدها اختراع الإنسان الرمز والحرف ونقشهما على جدران الكهوف، ثم كتب على رقائق الحجر، وسعف النخيل، ورقاع الجلود، ثم اخترع الورق فنسخ عليه المعلومات، ثم طبعها.. وها هو إنسان اليوم يقدم لنا ابتكاره الجديد الذي يتحول فيه القلم إلى زر يُضغط، وتتحول فيه المعلومات من خطوط تكتب على الورق إلى حروف تضاء على الشاشة.. يتغير الشكل، وتتغير معه المشكلات.. يذهب الورق وتذهب معه الحروف السوداء، ويبقى الكتاب وضاءً تتلألأ المعلومات فيه على شاشات الحواسب بأحرف من نور.

وخلاصة القول:

إننا نسير بسرعة مذهلة نحو مرحلة جديدة لتخزين المعلومات واسترجاعها وإعادة إنتاجها، ستتغير معها كل المشكلات، وتنقلب الموازين:

سيحل عمل الفكر محل عمل اليد.

وسينكسر احتكار المعرفة، لتكون المعرفة في متناول كل إنسان.

وستتحرر المعلومات من قيود المكان لتخترق الحواجز والحدود.

وستسقط الوصايات الفكرية وأنظمة الحجر.

وستنفتح القواقع الأيديولوجية والتيارات الفكرية على بعضها ويسود الحوار.

وستتراخى قبضة السلطة عن الثقافة، ويشتد تأثير الثقافة في السلطة، ويزداد دور المثقفين.

وسيتقن الإنسان السباحة في خضم المعلومات حين يجد نفسه ملقى في غماره.

أي إن الإنسان سيقرأ في عصر المعلومات عفوياً وتلقائياً فيكون مكرهاً أخاك لا بطل.

وسوف تزول مشكلات الكتاب التقليدية، وتنشأ مشكلات جديدة تستدعي التأمل والدراسات المعمقة.

ومثلما أزاحت الشاشة الصغيرة الشاشة الكبيرة عن عرشها، وأثرت تأثيراً كـــبيراً في المسرح، وبدأت شبكات الأنترنت تهدد الصحافة الوراقية، سوف تتغير كل طرق القـــراءة والدراسة والبحث.

فهل سنستوعب هذه المتغيرات، أم سنسقط على جسر العبور بين المرحلتين، فلا نحن نقرأ على طريقتنا التقليدية، ولا نحن نقرأ على الطريقة الجديدة.. ويكون الكتاب هو الضحية ويصرخ فينا يوم عيده (: عيد بأية حال عدت يا عيد؟!!).

٢ – الكتاب الورقي
يؤذن بالرحيل إلى المتاحف*[٢]

منذ زمن طويل اعتدنا على النشر الورقي وألفناه.. حتى إن بعضهم لا يفكر أنه في يوم من الأيام سيتبدل تقليب الكتاب ورقة ورقة باستعراض صفحاته على شاشة الكومبيـــوتر، لأن للكتاب سحراً خاصاً وألفة خاصة تنشأ بينه وبين قارئه، إضافة إلى سهولة حمله ونقلـــه من مكان إلى آخر، حيث يستطيع الراغب في قراءته أن يصطحبه معه إذا كان هديـــة مـــن عزيز، أو يذكرنا بأحداث مختلفة ومشاعر فياضة، انتابتنا حين قراءته، ولو كان هذا الكتاب استعارة من صديق يعاد إليه، لذلك نجد الكثير من الناس يقف في وجه الزحف الخارق للنشر الإلكتروني بجميع أشكاله وصوره.

عن زمن النشر الإلكتروني القادم إلينا لا محالة.. وعن برنامج تفسير القـــرآن الكـــريم بواسطة الكمبيوتر يحدثنا الباحث محمد عدنان سالم مدير دار الفكر في دمشق ونائب رئيس الاتحاد العام للناشرين العرب فيقول:

[٢] حوار أجرته مع المؤلف السيدة لينا إدلبي، ونشرته (السياسة) الكويتية في عددها ١٠٤٨٦ الصادر في ١٩٩٨/٢/٣م.

أعتقد أن النشر الإلكتروني سيغزونا حتماً بحكم قوانين التطور، فالزمن لا يمكن أن يعود إلى الوراء، فقد كان النشر الورقي مرحلة من مراحل استيعاب المعلومات، وقد سبقتها مراحل عديدة، وستتلوها مراحل أخرى.. فقد كانت الذاكرة أقدم وسيلة لاستيعاب المعلومات، وانتقل عن طريقها كثير من المعلومات، ثم جاء اختراع الحرف، وقدمت المعلومات على رقائق العظام وعلى الحجر، وسعف النخيل، وجلود الحيوانات، وبعد اختراع الورق انتقلت المعلومات لتكون في بطون الكتب بواسطة النساخة اليدوية في البداية التي استمرت عصراً طويلاً. وقد رافق أسلوب الوراقة والوراقين الحضارة العربية الإسلامية منذ بدايتها، وكانت مهنة الوراقة مزدهرة في ذلك العصر، وقد كان كبار العلماء يتعاطون هذه المهنة أمثال: الحسن بن الهيثم، حتى ابن خلدون مارس النساخة والوراقة، وعندما تم اختراع آلة الطباعة استغنى الناس عن النساخة اليدوية، فالكتاب في مرحلته الحاضرة إنما هو مرحلة من مراحل استيعاب المعلومات التي يمكن أن تأتينا بجديد.

وعن التطور الذي طرأ على الكتاب بعد انتشار التقنيات الحديثة يحدثنا قائلاً:

إن هذا التطور الحتمي سوف تتكيف معه الأجيال مثل أي مخترعات جديدة، ففي البداية يرفض الناس الجديد ريثما يألفونه. ونلاحظ أن كثيراً من الناس اليوم يحاول أن يدافع عن النشر الوراقي في وجه الزحف الإلكتروني الجديد، لعدم تخيلهم أنهم سيتكيفون بسرعة مع الكتاب الحاسوبي وقراءة الكتاب على شاشات ضوئية متتالية. لكن من يدري كيف سيتعامل أولادنا وأحفادنا مع الحاسوب الذي اعتادوه منذ بداية تعلمهم القراءة والكتابة وأحياناً قبل ذلك في لعبهم وتسليتهم. من المؤكد أن حياتهم القادمة ستصبح امتداداً لما نشؤوا عليه.

أما في الوقت الراهن، فإننا نجد أن النشر الإلكتروني قد نحا منحى مهماً يرضي الجميع، وهو منحى الموسوعات والمعاجم والقواميس، وهذا أمر طبيعي لأنه يمكن لقرص صغير لا يتجاوز قطره ١٥سم أن يغني عن مكتبة بأسرها ويختزن معلومات مئات المجلدات، ويمكن لأي قارئ أن يجمع آلاف الكتب في عدة أقراص، ويستغني عن مكتبة ضخمة يجهد في ترتيبها والعناية بها..

عدا عن المكان الذي تشغله هذه الكتب في المنزل، خاصة إذا كان المنزل صغيراً، وأنا متيقن من أننا مع حلول القرن الحادي والعشرين سنجد أن النشر الإلكتروني قد أخذ يحل

محل النشر الورقي بشكل تدريجي، وسيصبح الكتاب الورقي قطعة أثرية في المتاحف تحكي تاريخ استيعاب المعلومات مع الوسائل التي سبقته.

ويحدثنا الباحث سالم عن طريقة إدخال معلومات القرآن الكريم إلى الحاسوب فيقول:

عمد كثير من دور النشر الإلكتروني إلى خدمة القرآن الكريم بإدخاله إلى الحاسوب صوتاً وصورة وزودته بفهارس معجمية وطرق مختلفة للبحث.. لكن العمل الذي تفخر دار الفكر في دمشق بتقديمه في برنامجها (فكر للقرآن العظيم) هو المعجم المفهرس لمعاني القرآن، الذي يعد جديداً جداً على صعيد العالم العربي والإسلامي، لأنه يتعامل مع معاني القرآن الكريم وليس مع ألفاظه، كما أنه يأتي بالكلمة كما هي ودون رد إلى جذر أو مصدر.. فكلمة الحوار التي لم ترد بلفظها في القرآن الكريم إلا في ثلاث آيات في سورتي الكهف والمجادلة، تفرع عنها بوصفها موضوعاً رئيسياً، نحو خمسين موضوعاً فرعياً – على أربعة مستويات – تضم مئات الآيات القرآنية.

فهذا المعجم الحاسوبي يقودنا إلى الموضوعات وفروعها على عدة مستويات، وبترتيب ألفبائي معجمي يسهل على القارئ معرفة ما يريده بوقت قصير، وبالطبع فإن هذا البرنامج يتوجه إلى المختصين بشكل عام أو الأشخاص الذين يهتمون بمعرفة القرآن الكريم من وجه آخر وهو المواضيع.

يتميز هذا البرنامج بكونه يشتمل على أعمال عدة، فهو يحتوي على فهرسة موضوعية لآيات القرآن الكريم، وكذلك على تفسير للآيات وعلى معجم كلمي لكلمات القرآن الكريم أيضاً.. ويحتوي كذلك على طريقة للبحث عن كلمات القرآن الكريم عن طريق الكلمة نفسها أو عن طريق الجذر، وبذلك نجد أنه يتضمن عدة كتب في كتاب واحد، وسيتم إضافة مزايا عديدة في النسخ القادمة التي ستصدر إن شاء الله مصحوبة بتلاوات صوتية، وترجمة لمعاني القرآن إلى اللغات الأجنبية.

الفصل الثالث

صناعة النشر

وأزمة الكتاب الإسلامي*[3]

الأسباب الرئيسية الكامنة وراء أزمة صناعة النشر

قد نحتاج في البداية إلى إثبات دعوى أن صناعة النشر تعاني أزمة، ونحن في الوقت ذاته نرى عدد دور النشر، والعاملين في مجال النشر يزداد، وطلبات الترخيص بتأسيس دور للنشر تنهال على الجهات المختصة، ولو بقصد ادخارها ليوم أسود يتقاعد فيه صاحب الترخيص، أو توصد في وجهه أبواب الرزق..

غير أن واقع الحال أن نسبة الذين يمارسون صناعة النشر من هؤلاء المرخص لهم لا تتجاوز الخُمس، وأن نسبة الناجحين من هؤلاء الممارسين لا تتجاوز الخُمس، وأن نسبة الملتزمين بمعايير الجودة ومقتضيات المهنة من هؤلاء الناجحين لا تتجاوز الخُمس، وبذلك تكون حصيلة المجتمع أربعة ناشرين جادين من كل مئة يمارسون صناعة النشر وثمانية من كل ألف مرخص لهم بممارستها.

ربما يرى البعض في هذه النسب مبالغة أو إسرافاً في التشاؤم، مرده إلى الاختلاف في المصطلح: من الذي تعده ناشراً؟ وما مقاييس النجاح؟ وما معايير الجودة؟ وما ضوابط الجدية والالتزام؟ فأنا أتحدث عن ناشر ذي فاعلية تؤكد رسوخ قدمه في المهنة، وذي شخصية تؤكد التزامه بمعايير واضحة فيما ينشر، ولا أقيس نجاحه بمقدار ما يحيط نفسه به من مظاهر وضجيج وأرقام، وإنما بمقدار ما يقدمه من جودة وإبداع في مضمار الثقافة وما ينفع الناس.

أراني قد سارعت — دون قصد مني — إلى توجيه الاتهام إلى الناشر بوصفه سبباً رئيسياً في أزمة صناعة النشر، متجاوزاً كل ما يتناوش هذه الصناعة من معوِّقات، لا تحد من نموها وتقدمها فحسب، بل تأخذ بخناقها حتى لتكاد تنهكها.. ربما كان ذلك بسبب ميلي الثابت إلى اتهام الذات قبل اتهام الآخر، وثقتي بأن مفتاح الحل إنما يكون دائماً في يد صاحب

[3] نشر في مجلة (العالم) – العدد ٦١٥- ٤نيسان (أبريل)١٩٩٨م

المشكلة، لا في أيدي الآخرين، وذلك انطلاقاً من المبدأ القرآني {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ٣/١٦٥].

ولا حرج فقد أصبحت هذه الأسباب معروفة لكثرة ما تداولها المعنيون في ندواتهم ومؤتمراتهم ومقالاتهم، دون أن يتمكنوا من كبح جماح شيء منها:

قيود الرقابة العشوائية والمتناقضة في الوطن العربي.

الرسوم المالية الباهظة المفروضة على الكتاب في حله وترحاله.

أجور النقل العالية التي تشل حركته.

إحجام المؤسسات الثقافية والعلمية عن التزود بالجديد.

تسلط اللصوص على الكتاب الناجح ضمن موافقة اجتماعية لا تبالي أنها تسهم في وأد الإبداع على مذبح استباحة حقوق الملكية الفكرية.

قيام وسائل الإعلام المختلفة بدور المنافس للكتاب بدلاً من دور المكمل والداعم له، وإهمالها التعريف به ونقده والإعلان عنه ولفت الأنظار إليه.

التحول إلى الأوعية الإلكترونية الجديدة للمعلومات، التي تطرحها تقنيات الاتصال الحديثة، وتطورها بتسارع مذهل.

لا أهوِّن من أهمية هذه الأسباب، وأتمنى أن يتمكن المشقفون على الكتاب من التخفيف من وطأتها عليه، وأعلق الأمل الكبير على تضامن الناشرين العرب، المتمثل في اتحادهم العام، الذي يوشك أن يمسك بزمام الحل، من خلال جهوده المشكورة للارتقاء بصناعة النشر، وإرساء القواعد والضوابط والمعايير الكفيلة بتطويرها ونمائها.

غير أني لا أزال أرى وراء هذه الأسباب، سبباً رئيسياً يجب أن تتضافر الجهود كلها لحله، ألا وهو العزوف القرائي... فلتتوجه الجهود كلها لبناء مجتمع قارئ، فإذا تمكنا من إعادة بناء المجتمع القارئ، فسوف تزول الصعوبات الأخرى كلها من تلقاء نفسها..

عندما يرتقي الكتاب إلى مستوى الرغيف

عندما يصبح الكتاب حاجة يلوب عليها رب الأسرة كما يلوب على توفير الغذاء والكساء والدواء..

عندما يدخل الكتاب في قائمة الاحتياجات اليومية التي تعدها ربة المترل لعائلتها؛ زاداً لعقول أفراد الأسرة، وتنمية لثقافتها، وصقلاً لروحها..

عندما يكون الكتاب أحد اختيارات الأسرة لإهدائه لصديق في مناسبة عزيزة..

عندما يكون الكتاب حديث الشباب في أسمارهم، وهداياهم في أفراحهم..

عند ذلك تكون أركان المجتمع القارئ قد ترسخت، وتكون أقدام هذا المجتمع قد بدأت السير على طريق الحضارة..

أما السبيل إلى ذلك فدونه ركامٌ من التقليد والتبعية والتخلف والجمود والكلالة والخوف من الإبداع، والعجز عن إنتاج فكر جديد يضاف إلى فكر الآباء، والقعود عن إضافة لبنات جديدة إلى بناء المعرفة، والاقتناع بالتكرار والاجترار والاغتذاء بفضلات الموائد.. ولا بد من إزالة هذا الركام لتوفير المناخ الملائم لبناء مجتمع قارئ..

النشر مغامرة تجارية تحدوها رسالة ثقافية

يتقلب الكتاب في عدة مراحل، منذ أن ينفصل عن ذهن المؤلف مخطوطاً، إلى أن يصل إلى يد القارئ مطبوعاً، عبر سلسلة تضم الطابع والناشر والموزع وصاحب المكتبة، ويختلف حجم المغامرة ليبلغ أدنى درجاته عند الموزع، وأقصاها لدى الناشر.

إن اتخاذ قرار النشر، على الرغم من تفاوت معايير تقويم الكتاب عند دراسة الجدوى العلمية والاقتصادية، ينطوي على مغامرة كبيرة من الناشر العربي، الذي ينفق الكثير دفعة واحدة لإنتاج الكتاب، ثم لا يسترد ما أنفقه إلا منجماً مقطراً على دفعات قد تستمر سنوات في مجتمع عازف عن القراءة، مستنكف حتى عن تزويد مكتباته العامة..

لقد سبق لجيل الناشرين الرواد في الشطر الأول من القرن العشرين، أن قالوا تلخيصاً لتجربتهم: إن صناعة النشر تحتاج إلى مال قارون، وعمر نوح، وصبر أيوب.. وفاتهم أن يضموا إليهما خزائن يوسف، لتكديس الكتب فيها أيام القحط الفكري، رجاء أن يمن الله على العقول يوماً بغيث ينشطها لالتهام ما تكدس لديها من مخزون ثقافي.. ما لم يكن الزمن قد تجاوز هذا المخزون، وأغلب الظن أنه سيكون كذلك في عصر المعلومات، وتسارع حركة الأفكار، وغزارتها.. وعند ذلك سوف يقلّب الناشر كفيه على ما أنفق في تسويد هذه الصفحات، وهي ثاوية في مخازنه، ويقول ياليتها كانت بيضاء.. إذن لتمكن من بيعها بربح وفير.. وهيهات!!

الكتاب الورقي ينحسر أمام شاشات الحواسب

ينعى لنا أنصار الحواسب، والمعجبون بثورة المعلومات وتقنيات الاتصال الحديثة الكتاب الورقي، ويبشروننا بمكتبات، تختزل لنا آلاف المجلدات في علبة صغيرة تضم بضعة عشر قرصاً ممغنطاً، وتعرض لنا المعلومات بوسائط متعددة، وألوان مختلفة، نجني منها ما لذ وطاب، كما لو كنا، نتجول في روض نضير..

وينبري المدافعون عن الكتاب، ليؤكدوا لنا بقاءه واستمراره، وليعددوا لنا مزاياه التي لا يشاركه فيها منافسه الإلكتروني، وفي مقدمتها أنه الجليس الأنيس الذي يرافقك أينما كنت، في حلك وترحالك، في خلوتك وجلوتك، في جلوسك وقيامك، وحين تخلد إلى الراحة في فراشك.. وأنه طوع بنانك، تلتهم ما شئت من صفحاته حين نشاطك، وتسترجع من فقراته ما يلذ لك تكراره، وتلقي به جانباً إذا شعرت بالملل، فهو الناطق الأخرس، والصديق الوفي، ولن تجد المتعة التي يوفرها لك في غيره..

وأقول: إن عجلة الحياة لا تعود إلى الوراء وإن الكتاب الورقي مرحلة من مراحل أوعية استيعاب المعلومات؛ قبله كان الحجر وسعف النخيل وجلد الحيوان، وكانت الذاكرة البشرية.. وما أمتعك في قراءة الحرف المطبوع على الورق بحكم الإلف والنشأة والتربية، سيمتع أحفادك في قراءة الحرف المضاء على الشاشة، حين ينشؤون ويترعرعون بين الأزرار والفئران (مقابض التوجيه)؛ يحركون هذه ويضغطون على تلك، ولا تحدثني عن تعب عينيك أمام الشاشة، وعن تعذر حملها معك حيث تريد.. فما زال الكتاب الإلكتروني في بداية الطريق، وسرعةُ التقدم في مجال التقانة كفيلة بتذليل كل الصعوبات.. والإنسان دائماً عدو ما يجهل، وهو بالقدر الذي يمل فيه من الرتابة ويميل إلى التجديد، يستمسك بقديمه ويخاف من الجديد {بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [الشعراء: ٢٦/٧٤].

ومهما تشبث الناس بقديمهم، فلن يعدم الحديث ثلة من المغامرين يسبقون إليه، وينعمون بخيراته، إلى أن يقتنع الناس بجدواه وحسناته، وتلك هي فترة التجربة والاختبار التي يتعايش فيها القديم والجديد جنباً إلى جنب، ثم ينسحب القديم من الساحة غير مأسوف عليه.

قد تطول مرحلة الانتقال هذه وقد تقصر، وقد يشعر الرواد بنشوة المغامرة حين يضعون أنفسهم في حقل التجربة ومجال الاختبار، وقد يفرح المبطئون بتريثهم حتى تنضج

الثمار ويحين قطافها، غير أن قانون الله تعالى وسنة الحياة سوف لا تبقي في الأرض إلا مـــا ينفع الناس.

وعلى الناشرين أن يدركوا هذا القانون، فيطوروا أنفسهم، قبل أن يفـــوتهم ركـــب التقدم، ويلقي بعتادهم في متاحف المهن المنقرضة للتاريخ والذكرى.

الإمعان في التخصص يقود إلى حوار الطرشان

فلا بد لأي مجتمع من أرضية ثقافية مشتركة، تشكل اللغة المشتركة التي يتفاهم أفراده بواسطتها، وهذه الأرضية إنما تتكون من آداب هذا المجتمع وتراثه وتقاليده وعاداته ومسلماته التي تطبع سلوكه، وتفرض نفسها على ممارساته، وبموجبها يتصرف المهندس وماسح حذائه التصرف ذاته إزاء أية مشكلة تعترضهما.

والكتاب يلبي حاجة الإنسان في طرفيها العام والمتخصص، فإذا فقد الإنسان شـــعوره بهذه الحاجة، أو أخل بالموازنة بين طرفيها فسيكون العجب العجاب، وأغلب ظني أننـــا في واقعنا الراهن ننتمي إلى هذه الحالة، فلا نحن نقرأ الآداب العامة ولا المعـــارف المتخصصـــة، ونحتاج إلى أطباء مهرة لإخراجنا من حمأة الجهل والأمية ووضعنا على مسار التقدم في عصر المعلومات.

القراءة أولاً

لا يستطيع مؤلف أن يعيش من دخل مؤلفاته في مجتمع عـــازف عـــن القـــراءة، ولا يستطيع مجتمع أن يطأ مسار الحضارة دون أن يقرأ.. فالقراءة والحضارة طرفان في معادلـــة، وبينهما من التلازم والتكامل ما يجعل من هذه المعادلة قانوناً لا يحيد: فأمةٌ تقرأ أمة ترقـــى.. وتتردى الأمة في هاوية التخلف، كلما عزفت عن القراءة، وحين تعزف أمة عـــن القـــراءة تكسد فيها سوق الأفكار بموجب قانون العرض والطلب، وينحسر الإبداع، وتضمر الثقافة، ويتحول الناس عن مطالب العقل إلى مطالب المعدة والجسد، وينفضّون عـــن المبـــدعين في مضمار الآداب والمعارف والعلوم الباقية ليغرقوا في خضم الاستهلاك والعرض الزائل.

ويطبع الناشر في الوطن العربي من أكثر عناوينه رواجاً ألفي نسخة لمئتي مليون إنسان ينطق بلسان عربي مبين، ثم لا يبيعها بشق الأنفس إلا بعد بضع سنين.. فما الذي يمكـــن أن يعود على المؤلف من مردود هذا العدد الهزيل؟

وما الذي يمكن أن يبقى له بعد سطو قراصنة الحق الفكري على إبداعه دون رادع من قانون أو وازع من ضمير اجتماعي يستهجن هذه القرصنة؟

وتسألني عن الطريق إلى توفير حياة كريمة للمؤلف كي يعيش من دخل عمله الفكري.. وأقول لك: القراءة أولاً، أعطني المجتمع القارئ، لأعطيك كل مفاتح التقدم والنهوض والعيش الرغيد..

(اقرأ): أول خطاب ينتزل به وحي السماء

و لم تكن أولوية القراءة في الخطاب الإلهي من قبيل المصادفة، إنما هو قانون العليم الخبير: اقرأ لكي تبني حضارة {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} [الأحزاب: ٣٣/٦٢].

واستجاب المسلمون الأوائل لهذا النداء الإلهي، فقرؤوا واستوعبوا ونقلوا إليهم علوم الدنيا، وصهروها وعالجوها وأعادوا إنتاجها مطبوعة بشخصيتهم، مصبوغة بفكرهم ومبادئهم، فشادوا بأقصر زمن وأسرع وقت أعظم حضارة في التاريخ البشري.

واستقر هذا النداء في ضمير المسلم، حتى إنه ليعد القراءة وطلب العلم فريضة وواجباً دينياً يؤجر عليه، ويأثم لتركه، وانخرط كل مسلم في حلقة من حلقات العلم، لا يتخلف عن ذلك تاجر أو صانع أو عامل أو حاكم أو محكوم.

ووفر له التشريع الإلهي كل ما يتطلبه مناخ الإبداع الفكري من دعوة إلى نبذ التقليد للآباء والرهبان وللسادة الكبراء، وحضٍّ على إعمال العقل، ومواصلة الفكر والتدبر والنظر، وحثٍّ على حرية الفكر والرأي والتعبير، ونهي فريد عن الإكراه في الدين أو المعتقد، وإعلاءٍ من شأن الاختلاف والتعدد؛ نعمة أنعم الله بها على عباده، ووسيلة من وسائل النماء والتطور والارتقاء وتوليد الأفكار.

ثم أتى على المسلم حين من الدهر، أدركه ما أدرك الأمم السالفة من طول الأمد وقسوة القلب، وخبا في ضميره ذلك الوقود الذي كان يؤجج الشعلة، فتحنطت أفكاره، وتجمد عطاؤه، وانكفأ إلى تراث الأجداد يستجديه حلول مشكلاته، ويستعطفه للرد على تساؤلاته، فيهزأ منه الأجداد: النور في يديك ولا تبصر، والدليل عندك ولا تهتدي، والكنوز أمامك ولا تنتفع بها! كم أنت وارث سفيه وكسول! تنتظر وحي السماء وقد انقطع الوحي عند خاتم الرسل! رضيت لنفسك مقام الشحاذ المتسوِّل، ونسيت قول الله تعالى: {وَأَنْ لَيْسَ

لِلإِنْسانِ إِلاّ ما سَعَى (*) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (*) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الأَوْفَى} [النجم: ٥٣/٣٩-٤١].

لَمَ لا تنفض عن عينيك غبار النوم؟! لَمَ لا تشمر عن ساعد الجد؟! لِمَ لا تطلق عقلك من إسار التقليد والتجميد؟! ألست تعلم أن السمع والبصر والفؤاد أنعمٌ سيسألك الله عن تعطيلها؟!

ألست تعلم أن تكديس العلوم والمعارف من هنا وهناك، لن ينفعك ما لم تنظر فيها، وتستخدم عقلك في تحليلها وتركيبها، وتسهم في إعادة إنتاجها؟! وأن مثلك – إن لم تفعل – سيكون {كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً} [الجمعة: ٦٢/٥]؟!

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ٩٦/١].

{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (*) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (*) عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ٩٦/٣-٥]. ذلك هو الطريق.

المكتبة الإسلامية: فكر جديد يرتكز على ماضٍ تليد

لكل مقام مقال، ولكل جيل إسهامه في بناء المكتبة الإسلامية، والجيل الذي لا يضيف لبنة إلى هذا البناء لا قيمة له، وجدير بأن يتجاوزه التاريخ إلى جيل معطاء.. وتراث الفكر الإسلامي، لم يتكوَّن عند جيل واحد، ولم يتوقف ولم يكف عن العطاء، ولم يتردد جيل من أجيال المسلمين عن إمعان النظر في تراث أسلافه، وتهذيبه، وحذف ما فات أوانه منه، وإبراز مناقبه، ونقد مثالبه، وتحليله، والإضافة إليه.. ولم يعمد جيل من أجيال المسلمين إلى تحنيط فكر الأجداد، والطواف حوله تقديساً وإجلالاً.

هل لهذا الجيل الذي يعيش اليوم عصر المعلومات وثورة الاتصالات أن يقوم بدور فعال في تنمية الفكر الإسلامي، ورفع بنائه في موازاة الأبنية المعرفية الإنسانية التي تناطح السحاب؟!

أم إنه سيكتفي بدور المتبلد الكلِّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير؟!

الإبداع في الكتاب الإسلامي أن يتحول خطابه إلى المستقبل

الخطاب الإسلامي اليوم خطاب تاريخي، يستخدم (كان) ومشتقاتها أكثر مما يستخدم (سوف) وصيغ الاستقبال الأخرى في تعابيره، كما يستعمل مصطلحات الماضي في مكاييله وموازينه ومعاييره ونماذجه، ولم يكن الخطاب القرآني كذلك يوم تنزل، ولا أراد

له الحق أن يتحنط ويكف عن العطاء بعد عصر التتزيل، فقد وصفه رسول الله ﷺ بأنه ((لا تنقضي عجائبه، ولا يخلَق من كثرة الرد))، أي إنه لا يبلى مهما كررت الأجيال تلاوتـــه، لأنه ولود يحمل في أحشائه أجنة لم تر النور بعد، وهي العجائب التي لا تنقضي، ولا تكف عن رفد الإنسانية بكل جديد مثير لعجبها ودهشتها، وإنارة ظلماتهـــا، وحـــل مشـــكلاتها المتجددة.

ولقد استخدم الخطاب القرآني قصص الأمم الغابرة للاعتبار بها واســـتنباط القـــوانين الاجتماعية منها، وترك لنا أن نقيس عليها، وننظم حياتنا حسب قوانينها.. وفتح لنا أبواب الأمـــــل مشـــــرعة كلمـــــا اســـــتفدنا مـــــن هـــــذه القـــــوانين وطبقناهـــــا. ولقد تنزل القرآن العظيم على الناس بفكر جديد، يقلب حياة الناس رأساً علـــى عقـــب، وينهى عن المحافظة على القديم تقليداً للآباء ويدعو إلى التغيير والتجدد، ويحذر من السكون وطول الأمد، فالحياة ماضية بلا توقف، والعلم بحر لا ساحل له {وَلَوْ أَنَّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ} [لقمان: ٢٧/٣١]. {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً} [طه: ١١٤/٢٠].

((وإذا طلعت علي شمس يوم لا أزداد فيه علماً فلا بورك لي بطلـــوع شمـــس ذلـــك اليوم)).

هل سيتحول الخطاب الإسلامي إلى المستقبل ليصنعه، وصناعة المستقبل لا تكـــون إلا بالإبداع والتجدد المستمر؟!

المكتبة الإسلامية يعوزها الأدب والفن

وأدبيات الفكر الإسلامي المعاصر مقتصرة على العلوم الدينية وما يتفرع عنـــها مـــن تفسير وحديث وفقه وسيرة وتراجم، ولا تستخدم من فنون التعبير غير المقالة، وقلما تحيـــد عنه إلى الشعر والقصة والرواية والمسرحية، على الرغم من أن تراثنا العربي والإسلامي زاخر بكتب الأدب والشعر.

وإذا كانت وسائل الإعلام الحديثة قد أصبحت الأداة الكبرى لتشكيل الرأي العـــام، وتوجيه المجتمعات، فإن القصة والرواية والمسرح تعد من لوازمها الرئيسية لتقـــديم برامجهـــا ومسلسلاتها الثقافية أو الترفيهية الهادفة.

والمكتبة الإسلامية المعاصرة تفتقر إلى النص الأدبي بكل فنونه، لكي تتمكن من الإسهام في مجال الإعلام، وما لم تتدارك هذا النقص، فسيظل الخطاب الإسلامي مقتصراً على منابر الوعظ، مكللاً بجفاف النصوص، بعيداً عن تعدد الأساليب، وتنوع الألوان الأدبية التي تتطلبها وسائل الإعلام للتأثير في الناس وجذب انتباههم.

عندما تخبو جذوة الفكر تبزغ الخرافة

إن قراءة واعية للقرآن الكريم تُظهر لنا كم كان الإسلام حريصاً على تحرر الإنسان من الخرافة والشعوذة، وربطه بأساليب العلم والتفكر والنظر والاعتبار.. فها هو الخطاب القرآني يبدأ أول ما يبدأ بالأمر بالقراءة والتعلم لتحصيل الكرامة، ثم يشدد تحذيره للإنسان من اتباع غير طريق العلم وتذكيره بمسؤوليته عن وسائل تحصيله التي زوده بها {وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء: ١٧/٣٦].

فهل للخرافة بعد ذلك أن تدعي أية نسبة إلى الإسلام الذي كرس خطابه لتحرير الإنسان منها؟!

وهل يمكن للخرافة أن تتذرع بالانتساب إلى الإسلام إلا كما يرتدي اللص ثوب الناسك المتعبد؟!

ولن يدحر الخرافة ويطردها من ذاكرة الأجيال سوى الوعي بأصول الإسلام، ونفض ما تراكم عليه من غبار حال دون الانتفاع به، وإزالة ما تغشاه من سحب حجبت نوره عن الأعين.

وتلك هي مهمة المفكرين والكتّاب من جهة، بأن يواصلوا مسيرة الأجيال السالفة في الكشف عن الأجنة القرآنية الواعدة في كتاب الله المسطور ((الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلَق من كثرة الرد)) وفي كتاب الله المنظور في آفاق الكون المسخر للإنسان {سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٤١/٥٣].

وهي في الوقت ذاته مهمة الناشرين من جهة أخرى، بأن لا ينحدروا إلى مستوى الغثاثة، وأن يكفوا عن نشر الخرافة والشعوذة من أمثال غرائب العالم وعجائب الدنيا، وأخبار الجان والعفاريت، وأشهر قصص الحب، وأشهر الجرائم، وأشهر الجواسيس، وفضائح العائلات المالكة، والصحون الطائرة، وقراءة الكف والفنجان، وأن يدركوا سموّ الرسالة الثقافية التي اضطلعوا بها، فيرتفعوا بمستوى إصداراتهم، ويختاروا لها النافع والمفيد والمبدع..

فإن لم يفعلوا، فإن وعي القارئ كفيل بأن يلفظ المسيء إلى ثقافة الأمة منهم، ويتشبث بالمحسنين.

الكتاب الإسلامي المعاصر لم ينشر بعد

وما يقال عن رواج الكتاب الإسلامي، من بين سائر الكتب، ليس ظاهرة صحية، ولا مرتبطاً بصحوة شاملة كما يظن:

فهو أولاً لا يعدو أن يكون موجة من الموجات القرائية التي يتقلب الناس بينها، فقد راجت الكتب الماركسية في الخمسينيات من هذا القرن، تلتها الكتب القومية والعلمانية في الستينيات، ثم كتب القصص والروايات في السبعينيات، ثم الكتب الإسلامية في الثمانينيات، ولم يستقر ذوق القارئ – إن وُجِد القارئ – في التسعينيات بعد.

وهو ثانياً – كما يبدو من نوعية ما يروج منه – مرتبط بمراكز تعليم أو توجيه تقليدية تعتمد كتباً معينة من التراث، أو بتيارات مذهبية أو فكرية أو حزبية تعتمد كتباً معينة من المؤلفات الحديثة، لا تسمح لأنصارها بمد أعينهم خارجها، فيتقوقع كلٌّ حول نفسه، لا يحاور الآخر فضلاً عن أن يعترف بوجوده، وترتفع الحواجز، ويذهب كل حزب بما لديهم فرحون.

وفي حالة الكتاب التراثي تجد كمّاً معرفياً كبيراً، ينقصه التحليل وحذف المكرر وما فات أوانه، وإعادة التركيب والصياغة بما يلائم روح العصر وحاجاته. أما في حالة الكتاب المعاصر فإنك تجد التكرار والمحاكاة واستعارة تعابير العصر دون عمق في الفهم، مما يؤكد غياب روح الابتكار في الحالين، ما عدا ومضات فكرية تظهر بين الحين والحين، ثم تضيع في ظلمة التقليد والعجز عن الإبداع.

أما الكتاب الإسلامي الذي يتوق العالم كله إليه، فهو الذي يوجه عيناً على الماضي ليستند إليه وعيناً على المستقبل ليصنعه، ويتحول بخطابه من لغة التاريخ ومصطلحاته إلى لغة الحاضر وتعابيره.

ولقد تنزل القرآن الكريم يوم نزل داعياً البشر إلى تحليل فكر الآباء، ونزع القداسة عنه، والنهي عن تقليده لمجرد مرور الزمن عليه: {إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنّا عَلَى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (*) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ} [الزخرف: ٤٣/٢٣-٢٤].

وتستمر دعوة القرآن العظيم للتجديد في كل عصر وجيل، لكونه الخطاب الشامل المتسامي فوق الزمان والمكان، وعلى كل جيل أن يقرأ القرآن كأنه يتنزل التوّةَ عليه.

لا يخلق الكتاب الإسلامي حالة صدام مع الثقافة السائدة لكونه مسايراً لها

فهو لا يزال ينسج على منوالها، ويحافظ على هدوئها، ويحرص على عدم إزعاجها، ويسهم في ركودها وتحنيطها، والحيلولة دون نموها وتقدمها، وهو على الرغم من تلاوته للقانون الإلهي الذي يؤكد {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١٣/١١]، قلما يقدم للمسلمين ما يحفزهم إلى التغيير.

إن عجز الكتاب الإسلامي عن خلق الصدمة الكافية لتنبيه الغافلين، أدى إلى التقوقع ضمن الاتجاه الفكري الواحد، ورفض الآخر، وعدم الإصغاء إليه، ومعلوم أن ثقافة الاتجاه الواحد لا يقدر لها النمو، ومآلها الحتمي هو الشيخوخة والفناء.

وإذا كان مثَل الكتاب غير الملتزم بالإسلام، كمثلِ جذع مجتث من فوق الأرض، مفتقر إلى الجذور ماله من قرار، فإني أرى مثَل الكتاب الإسلامي التقليدي كمثلِ جذر موغل في الأعماق مفتقر إلى جذع يرى النور، وأغصان تتطاول في السماء، أو أن مثلَه كمثلِ أغصان اصفرت أوراقها وتساقطت في خريف طال أمده، فهي تنتظر إلى ربيعه يمدها بالحياة كي تزهر وتورق وتغدق ثمارها من جديد.

الاتحاد الواعد للناشرين العرب

مطلوب منه أن يسهم بكفاءة في كسر الحواجز بين الاتجاهات الفكرية المتباينة، وتوفير المناخ الملائم للحوار البناء فيما بينها، واستثمار التعدد واختلاف الآراء بوصفه وسيلة للتكامل والتعاون على اكتشاف الحقيقة، بدلاً من استخدامه وسيلة للتدابر والتقاطع، فإن الحقيقة لا تنقدح إلا بتصادم الأفكار واحتكاك بعضها ببعض.

إن هذا المطلب يندرج ضمن المسؤوليات الكبيرة التي يضطلع بها الاتحاد الوليد للارتقاء بصناعة النشر، وحل أزماتها، وتذليل الصعوبات التي تعيق تقدمها، وابتكار الأساليب الناجعة لتنشيط القراءة، وللانتقال بالناشرين إلى مرحلة النشر الإلكتروني الذي يوشك أن يكون الوعاء القادم لاستيعاب المعلومات في القرن الحادي والعشرين.

الفصل الرابع

معارض الكتاب

١ – معارض الكتاب تفتقر إلى التجديد

نظراً لما للقراءة من أهمية في ارتقاء الأمم ونشوء الحضارات وازدهارها، تحرص جميع الشعوب على إقامة معارض الكتاب، من أجل تنشيط القراءة، وتيسير الكتب للقراءة حتى تكون في متناول أيديهم، يطلعون فيها على مستجدات العلوم والآداب الإنسانية، من خلال عرض أحدث الإصدارات لمختلف دور النشر المحلية والعالمية، وتكون جسراً للتواصل والتعارف بين أطراف صناع الكلمة من قارئ ومؤلف وناشر وموزع.

وتبدو أمتنا العربية، أحوج ما تكون الآن لهذه المعارض وسيلة لإعادتها إلى عالم القراءة، وهي التي انفردت من بين سائر الأمم بكونها صاحبة رسالة {اقْرَأْ}، تلك الكلمة الساحرة التي كانت أول سطر من الخطاب الإلهي الموحى به إليها، عندما أراد الله لها أن تحمل راية الحضارة الإنسانية دهراً، قابلاً للتكرار كلما استجابت له؛ فقرأت واستوعبت وصهرت واستخلصت وطَورت وأبدعت، وأعادت إنتاج الأفكار، مضيفة لبنات جديدة ومميزة إلى بناء المعارف الإنسانية المتراكمة، لتسجل باسمها، حاملة صبغتها ومطبوعة بشخصيتها الفذة.

أقول إنها الآن أحوج ما تكون لمثل هذه المعارض للكتاب، نظراً لحالة العزوف القرائي التي تنتابها، والمتمثلة فيما أصبح يعرف بالأمية اللاحقة بعد أن استطاعت تخفيض نسبة الأمية السابقة بما اشترعته من أنظمة لمحو الأمية والتعليم الإلزامي.. حتى قيل: إن أمة {اقْرَأْ} باتت لا تقرأ.

فهل استطاعت المعارض العربية للكتاب أن تحقق أهدافها، وأن تعيد الأمة العربية إلى عالم القراءة؟!

إن ترسيخ عادة القراءة، وبناء المجتمع القارئ، يحتاج إلى تضافر جهود متنوعة ومضنية تبدأ من المهد في الأسرة، وتنميها المدرسة وتدعمها الدولة، ويفجرها المجتمع، بما يوفر لها من المناخ الملائم المفعم بحرية التعبير، وتنشيط حركة النقد، والحوار، واحترام الرأي الآخر، وما يذخر به من مناقشات وندوات ومحاضرات وتداول للأفكار، ومعارض للكتب، وإدراجها في سلّم الأولويات، وفي قوائم الإهداء في المناسبات.

لا شك أن للمعارض المحلية التي تقيمها دور النشر، والمراكز الثقافيـــة دوراً هامـــاً في تنشيط حركة الكتاب، لكننا سنخصص حديثنا للمعارض العربية والدولية للكتاب بوصفها ظاهرة متميزة تقام بصفة دورية.

بدأت حركة المعارض العربية منذ نهاية الخمسينيات، وأخذت سنوياً تسجل أرقامـــاً لعدد الدورات التي عقدتها، ففي هذا العام ١٩٩٩م يقيم معرض بيروت العربي الدولي دورته رقم ٤٣، ومعرض القاهرة دورته رقم (٣١) ومعرض الكويت دورته (٢٤) ومعـــرض الشارقة دورته (١٨) ومعرض تونس دورته (١٧) ومعرض دمشـــق (١٥).. وهلُـــمَّ جرّاً.

وغالباً ما يصاحب هذه المعارض أنشطة ثقافية وندوات فكرية، وحفـــلات تكـــريم وجوائز، ليكون معرض الكتاب موسماً ثقافياً وحدثاً دورياً مميزاً في حياة المجتمع.

ويقوم منظمو المعارض على مدار العام بجهد دؤوب، وإعداد متواصل، لكي ينهضـــوا بالمعرض إلى المستوى اللائق، ويسدوا الثغرات، ويستفيدوا من التجارب الماضية.

كما يعملون قبيل المعرض وأثناءه على الدعاية له والإعلان عنه، وتغطيته إعلاميـــاً في وسائل الإعلام كلها المقروءة والمسموعة والمرئية.

وتنبري لغة الأرقام لتتحدث عن تصاعد في عدد دور النشر المشاركة، وعدد العناوين المعروضة، ونسبة الجديد منها، وعدد الزوار، وأرقام المبيعات.

وتنقضي ليالي المعرض، ويتنفس المنظمون لها الصعداء، جراء الجهود المضنية التي بذلوها قبله وأثناءه، ليتأهبوا للدورة القادمة بعد أن أكسبتهم التجارب الماضية خبرات دونوهـــا في كتاب الدعوة للمشاركة، ودفتر الشروط، وقوائم المشاركين والمحاضرين والضيوف.. ولـــن تكلفهم الدورة القادمة أكثر من تبديل الأرقام والمواعيد وبعض التعديلات، وكثيراً ما تفلت بعض الأرقام من التعديل، فيصححها القارئ اللبيب.. ولا حرج.

أما (القراءة) التي هي هدف المعارض الرئيسي، فلا رصد لها، ولا مقياس لتقدمها أو تقهقرها، ولا تدخُلُ في منظومة الأرقام المعلنة، وبالتالي، فإن المعارض العربية للكتـــاب، في رأيي، لم تعد تؤدي أغراضها، ولا بد من إعادة النظر فيها جملة وتفصيلاً؛ أهدافاً ووسائل، وشروطاً وإجراءات..

ما الذي يعنيه الرقم الأربعون لدورة المعرض، إذا كان نسخة طبق الأصل عن الدورة رقم (١)؟ هل يعني أكثر من رقم (١) مكرراً ٤٠ مرة؟!

ما الذي يعنيه لرواد المعرض عدد ألف ناشر، ومئة ألف عنوان، إذا كانت العناوين والمضامين هي هي ذاتها، لم تتبدل و لم تتغير؟!

قد يتبدل اسم الناشر، وقد يتغير شكل الغلاف، وقد يتجدد المحقق، دون أن يتغير في الكتاب شيء.

بل إن التبديل قد يدرك العنوان واسم المؤلف، وحقيقة الأمر أن لا جديد يضاف، ولا إبداع يلحظ.

ما الذي يعنيه لي عدد مليون زائر، إذا كان هذا الرقم وهماً ينشر دون أيِّ مستند أو طريقة منطقية، أو كان رقماً لزوار التسكع والتتره ممن لا علاقة له بالكتاب؟!

ما الذي تعنيه حفلات التكريم للمؤلف المبدع أو الناشر النموذجي، إذا كانت بدون معايير؟!

ما الذي تعنيه ندوات الفكر والثقافة، إذا كانت بالوجوه ذاتها والاتجاهات ذاتها، لا وجود فيها لرأي آخر يحاور وينتقد؟!

إن الرتابة والتكرار والاجترار في الأشكال والمضامين والأساليب وطرق العرض والإعلان والمقابلات والندوات، تورث الملل، وتدفع إلى الإحجام، وتفصل الممارسات عن أهدافها، إذ تصبح عادة تتكرر بلا هدف.

لقد رُكِّب في فطرة الإنسان حبُّ الجديد والتجديد، يرى فيهما النماء والتطور والارتقاء، وكرهُ التكرار والإلف يرى فيهما الجمود والتوقف والانكفاء.

وقد فطن التجار وأرباب الحرف والصناعيون لأهمية هذه الفطرة في الإنسان، فاستخدموا لتحقيقها فنون التزيين (الديكور)، ونوعوا أساليب العرض، وواصلوا التغيير والتطوير، كي يحافظوا على اهتمام زبائنهم، ويجتذبوا إليهم المزيد.

في مهرجان التسوُّق في دبي، لم يتركوا وسيلةً من وسائل الإعلان، ولفت الأنظار، وإثارة الاهتمام إلا اتخذوها، حتى جعلوا من المهرجان حدثاً أحس به كل مواطن في دبي، يمشي في الشارع، أو يدخل إلى مكتبه، أو يأوي إلى بيته فتقرع سمعه وتخطف بصره الألعاب

النارية، أو البرامج التلفزيونية، أو الجوائز المغدقة..بل إنهم اجتذبوا إليهم الزوار من أنحاء العالم.

هل يعجز مهرجان الثقافة والكتاب، وهو الأكثر تأثيراً في مستقبل الناس، أن يُبتكر له من الوسائل والأساليب ما يقرع السمع ويخطف البصر ويجتذب إليه عشاق الفكر والكلمة من بني البشر؟!

أدعو الناشرين إلى ممارسة دور فعال في إنجاح المعارض، بوصفهم شركاء أساسيين فيها إلى جانب المنظمين، فلن تقوم المعارض بلا ناشرين، ولن تحقق المعارض أهدافها إذ لم يرتق الناشر إلى مستوى هذه الأهداف..

وأدعو وسائل الإعلام إلى القيام بدورها المنشود في بلوغ المعارض أهدافها في تأصيل وترسيخ عادة القراءة في المجتمع.

لم تعد العائدات التي يؤوب بها منظمو المعارض نتيجة رفع رسوم المشاركة، وزيادة عدد المشاركين. ولا أرقام المبيعات التي يحققها الناشرون، ولا الساعات التي تقضيها وسائل الإعلام في المعارض لتغطية أخبارها. . لم يعد كل ذلك مؤشراً للدلالة على نجاح المعارض.. إنما المؤشر الحقيقي في المضامين، وفي عدد الزوار الجدد الذين يجتذبهم المعرض إلى عالم القراءة..

واجتذاب زوار جدد يحتاج إلى الابتكار والإبداع..

فعلى المنظمين:

١ً – أن يبتكروا مؤثرات جديدة، وأساليب جديدة في العرض، وفي الإعلان، وفي استدراج الجماهير والمؤسسات الثقافية؛ مبنية على دراسات نفسية واجتماعية وتسويقية.

٢ً – وأن يختاروا لندواتهم الثقافية موضوعات ذات صلة وثيقة بما تهدف إليه المعارض من بناء مجتمع قارئ تاركين الموضوعات الأخرى لمناسباتها خارج معرض الكتاب.

٣ً – وأن يقدموا للجمهور وجوهاً جديدة متعددة الاتجاهات يتجاوزون بها احتكارات الشهرة، والرأي الواحد، الذي لا يحرك ساكناً، ولا يثير حواراً، ولا ينشط الحركة النقدية في مجالات الثقافة والفكر والأدب.

٤ً – وأن يلزموها بالتحضير المسبق، لتقديم أبحاث تنفذ إلى عمق المشكلات، وتتناول تفاصيلها وجوانبها المتعددة، بلا ارتجال ولا اجترار.

٥ً – وأن يبتكروا أساليب جديدة لإشراك جماهير القراء من زوار المعرض في هذه الندوات، كأن تطرح مسابقات لأفضل قارئ يقدم نقداً علمياً لكتاب جديد يباع في المعرض لأول مرة.

٦ً – وأن ينوعوا المسابقات والجوائز، طبقاً لمعايير واضحة معلنة ولجان تحكيم معروفة، لأحسن كاتب، وأحسن ناشر، وأحسن قارئ.

٧ً – وأن يقدموا إحصاءات دقيقة، تفيد الدارسين والمهتمين بشؤون التربية والثقافة، وتقوم على معطيات سليمة كالاستبانات، والاستطلاعات، وغيرها.

وعلى الإعلاميين أن يواكبوا هذا المهرجان الثقافي بكل ما يتطلبه من اهتمام وجدية وعمق وتفاعل:

١ — فيسهموا في التعريف بجديد الناشرين، بعناوينهم وأسمائهم من دون حرج، وبيان أساليب عملهم، ومعايير قبولهم للكتاب، ومدى التزامهم بحقوق المؤلف وشرف المهنة ورسالتها..

٢ — وفي استطلاع آراء الزوار، وتوجهاتهم الثقافية، بطرح أسئلة دقيقة ومدروسة ومنوعة، بعيداً عن الرتابة والتكرار، وقادرة على إثارة كوامن الآراء الناقدة، للإدارة وللناشرين، ولمستوى الإبداع لدى المفكرين، كما هي قادرة على كشف حالة العزوف القرائي لدى الزوار أنفسهم، بتوجيه أسئلة مثل:

-هل هذه زيارتك الأولى للمعرض هذا العام؟

-هل زرته في الأعوام السابقة؟

-هل اشتريت كتباً في هذه الزيارة؟

-هل أنت قارئ؟ لماذا وكيف؟ .. إلخ.

وعلى الناشرين:

١ً – أن يبرزوا جديدهم في المعارض.

٢ً – وأن يجددوا أساليبهم في العرض، ويتسابقوا أيهم أفضل عرضاً، وأكثر أناقة، وأشد حفاوة، وأحسن استقبالاً للزائر.

٣ً – وأن يهتموا بإرشاد الزائر لطلبه، وتعريفه بإصدارهم، والاطلاع على رأيه وانطباعاته وتوجهاته.

٤ً – وأن يلتزموا بالأسعار والحسم المقرر للزائر.

وإذ ذاك.. سوف تكون المعارض قد أدت أغراضها، حتى لو لم تكن الأرقام كبيرة ومثيرة.

٢ – الناشر العربي في معرض فرانكفورت*[٤]

الأستاذ محمد عدنان سالم هو مدير دار الفكر التي تعد رائدة في مجال نشر الكتاب الإسلامي، كما أنه يشغل منصب نائب رئيس الاتحاد العام للناشرين العرب، ورئيس اللجنة العربية لحماية حقوق الملكية الفكرية، ورئيس اتحاد الناشرين السوريين، وقد شارك مؤخراً في معرض فرانكفورت للكتاب، فكان لـ (العالم) لقاء معه بهذه المناسبة لمناقشة مكانة الناشر العربي بين الناشرين:

هل شاركتم في معرض فرانكفورت، هل كنتم الدار الإسلامية الوحيدة؟

–في معرض فرانكفورت كانت لنا مشاركة ضمن جناح الاتحاد العام للناشرين العرب، وكان يضم عدة ناشرين من اتجاهات وتيارات مختلفة، وشعرنا بأهمية مشاركتنا في معرض فرانكفورت لمزيد من التواصل مع الناشرين الأجانب ومحاولة نقل الثقافة العربية إلى اللغات الأجنبية وبالعكس، أي نقل ما عند الناشرين الغربيين إلى العربية، وكانت هذه فرصة أيضاً للتعاون ولإقامة بعض الندوات لمعالجة مشكلات الكتاب بصورة عامة. ونحن نحاول أن نطور هذه المشاركة في الأعوام القادمة لتضم مزيداً من الناشرين العرب وليأخذ الجناح العربي مكانته اللائقة في هذا المعرض.

هل كانت هذه مشاركتكم الأولى؟

–بالنسبة إلى دار الفكر كنا قد شاركنا في الثمانينيات في عدد من المعارض الدولية، ولاحظنا سابقاً عدم الاهتمام بالكتاب العربي، فكانوا يعطوننا أجنحة في أمكنة غير مناسبة، ويصعب على القارئ الوصول إليها. ولكن هذه المرة كانت أكثر لياقة واحتراماً بموجب الاتصال بين إدارة المعرض واتحاد الناشرين العرب.

ما هو انطباعكم عن مهرجان فرانكفورت؟

---

[٤] حوار مع المؤلف نشر في مجلة (العالم) – العدد ٦٤٥-٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٨

–فيما مضى لم يكن انطباعاً جيداً لأنه لم يكن للناشرين العرب وجود فعّال، بينما نجد الآن اهتماماً أكثر، ونحاول أن يكون جناح الناشرين العرب في المستقبل مناسبة للتواصل بفعالية أكثر مع الناشرين الأجانب، وأن يكون لنا حضور واسع في عالم النشر. ونحاول في الأعوام القادمة دعوة بعض المثقفين وإقامة حفلات استقبال وندوات للمزيد من التعارف. وبصورة عامة نشعر أن الكتاب العربي في أوربا وفي العالم الغربي لا يجد الرواج الكافي حتى بين أفراد الجاليات العربية والإسلامية، وتوزيعه ضيق جداً. ولدينا إحساس بأن المهاجرين العرب (أو العرب المقيمين في البلدان الأجنبية) منصرفون عن القراءة، وأبناءَهم من الجيل الثاني مندمجون في الثقافة الغربية. ومشاركتنا محاولة لتنشيط عملية القراءة وترويج الكتاب العربي في الغرب.

تعاني حركة الكتاب من فوضى النشر والتلاعب بالملكية الفكرية، فماذا يعمل الاتحاد لمواجهة ذلك؟

من الخطوات التي قام بها اتحاد الناشرين العرب لضبط حركة النشر، محاولة حفظ حقوق الملكية الفكرية، فقد درجنا في العالم العربي على الترجمة من دون إذن وعلى تعدد الترجمات بدون إذن من الناشر الأصلي. وهذا أمر مؤرق جداً، ولا يقوم به إلا إنسان لا يوجد عنده فكر يخاف عليه. وفي الحقيقة إن حفظ حقوق الملكية الفكرية تبناها اتحاد الناشرين، وشكّل لجنة باسم (اللجنة العربية لحماية حقوق الملكية الفكرية) التي أتشرف برئاستها، وهي تقوم منذ سنوات عديدة بالكثير من الإجراءات لضبط هذه الحقوق، وقد أصدرت نشرة بعنوان (بالمرصاد)، تحاول فيها أن تبرز ضرورة احترام الملكية الفكرية وأن تذكر كل الشكاوى التي تصلها في هذا المضمار، ويقوم الاتحاد – بالإضافة إلى جهوده مع الحكومات من أجل إصدار قوانين الملكية الفكرية في البلدان التي لم تصدر فيها بعد – بإجراءات مهنية يراها هامة جداً لضبط هذه الحقوق، ومن هذه الإجراءات منع من يثبت عدم احترامه الملكية الفكرية من المشاركة في المعارض بالتعاون مع منظمي المعارض العربية. وقد يتخذ من العقوبات ما يصل بعضها إلى طرد أو مقاطعة المزورين ومنع التعامل معهم.

كيف تحاول دار الفكر الإجابة عن التحديات الفكرية القائمة؟

نحن نشعر أن الفكر العربي الإسلامي يعاني من فترة جمود وضعف في الإبداع، ومنذ قيام دار الفكر، أخذت الدار على عاتقها تطوير الدراسات الإسلامية المعاصرة، وهي تخطو

في العقد الأخير من هذا القرن خطوات ملموسة في هذا الموضوع، ودار الفكر تتخذ في كل عام شعاراً لها تعمل بموجبه. ومن هذه الشعارات بناء مجتمع قارئ، صناعة النشر مسؤولية، الحوار حضارة، إعمال العقل مفتاح التقدم. وتطبيقاً لشعارنا في هذا العام، قمنا بإعداد سلسلة حوارية بعنوان: (حوارات لقرن جديد) نستكتب في كل حلقة منها كاتبين من تيارين فكريين مختلفين ثم نسلّم ما كتب كل منهما للآخر ليعقّب عليه، ونحن نهدف من هذه السلسلة إلى تدريب العقل العربي المسلم على قبول الآخر وقبول الاختلاف، وعلى أن يخطو كل من الطرفين الفكريين نحو الآخر، لأننا نرى أن نمو الأفكار لا يمكن أن يتم في حالة التقوقع الأيديولوجي والاتجاه الفكري الواحد، ونؤمن أن بارقة الحقيقة لا تنقدح بتصادم الأفكار واحتكاكها، وكنا دائماً نحاول من خلال هذه الحوارات أن نصل إلى شيء من التكامل الفكري وتوليد الأفكار الجديدة وتنشيط حركة الفكر الإسلامي، وقد أنتجنا حتى الآن ثلاث حلقات من هذه السلسلة، وقيد الإعداد عدد كبير من الحلقات في مختلف المحاور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقائدية وحتى الأدبية واللغوية. كما أن الدار في عام ١٩٩٧ أعلنت عن جائزة لأفضل رواية شعوراً منها بأن الفكر الإسلامي في وضعه الراهن لا يملك أدباً يغلّفه، وأن معظم ما يكتب عن الإسلام يكتب بأسلوب المقالة، ولا يوجد فن إسلامي أو أدب إسلامي على النحو المأمول، وكأن هذه الظاهرة قد تكرست في المجتمع الإسلامي الحاضر على الرغم من أن عصورنا الإسلامية الزاهرة كانت زاخرة بالآداب والفنون، لذلك قدمت دار الفكر هذه الجائزة إسهاماً منها في تنشيط حركة الأدب الإسلامي، وقت تلقت في عام ١٩٩٧ ما يزيد على ٥٠نصاً اختارت منها نصين للجائزة الثانية والثالثة، وحجبت الأولى لعدم توافر الشروط الكافية فيها، وقد شكلت لذلك لجنة تضم عدداً من المحكمين، وكنا سعداء جداً بأن الرواية الفائزة بالجائزة الثانية كانت من نصيب الكاتب (أحمد القاري) من المغرب. وكان مبعث سعادتنا أننا اكتشفنا أو أسهمنا بالكشف عن موهبة مغربية في عمق الصحراء في مدينة العيون، لكاتب ناشئ الآن في السنة الرابعة من كلية الحقوق في الرباط. وكانت القصة بعنوان ((لا أحد يعرف ما أريده)) وصف فيها المجتمع المغربي بوضعه الراهن بكل ما يعانيه الجيل الجديد من ضياع، نتيجة عدم قدرة الجيل السابق على نقل قيمه القديمة وعدم إيجاد قيم بديلة. وقد ذهبت إلى المغرب

لتسليمه الجائزة، وكان شعوره في غاية البهجة ودمعت عيناه قائلاً: مهما بلغت الجائزة فهي لا تعدل قدومك من المشرق إلى المغرب لتسليمي الجائزة.

وماذا تتمنى للكتاب الإسلامي؟

على الناشرين الإسلاميين وغير الإسلاميين أن يزيدوا من حجم الإبداع في منشوراتهم لأن القارئ لم يعد مستعداً — بعد التوسع في حجم المعلومات وتعدد الخيارات أمامه وتعدد مصادر المعرفة لديه – لم يعد مستعداً لقبول التكرار والتقليد، وإعادة إنتاج المعلومات القديمة بتلخيصها تارة، وشرحها تارة، فلا بد من التجديد، والتجديد شرط أساسي من شروط استمرارية الدعوة إلى الإسلام. والخطاب الإسلامي الآن ينبغي له أن يتحرك لتغطية الحاضر ومعالجة واستكشاف المستقبل والتخطيط له لأجل أن نخرج من حالة الجمود التي نعانيها هذه الأيام.

٣ – الثقافة العربية في سوق عكاظ (بفرانكفورت)

معرض فرانكفورت أكبر وأوسع معرض دولي للكتاب؛ مباني ومشاركين وزواراً. يعد في مدينة فرانكفورت موسماً سياحياً، تتضاعف له أسعار الفنادق ويتعذر فيه الحصول على حجز فندقي قبل بضعة أشهر.

يعمل الناس فيه مثل خلية نحل، ويتعذر الحصول فيه على موعد مع كبار الناشرين، ما لم يكن مسبقاً، ويتوسع، ويتطور، وتبتكر له أساليب جديدة، تجتذب الأنظار بشكل ملحوظ.

يحدث هذا في الوقت الذي يشكو فيه الجميع من تراجع في رواج الكتاب وتسويقه، وإعراض عنه بسبب تعدد المصادر أمام المتلقي، عبر الفضائيات وشبكات المعلومات، الأكثر جاذبية وإثارة ولفتاً للانتباه.

دور الناشر العربي في معرض فرانكفورت:

قليل جداً من الناشرين العرب من يهتم بمعرض فرانكفورت، أو يستفيد من فرصه ويستثمرها في شكل بناء علاقات جيدة، وتنمية علاقات سابقة، وتعاقدات على حقوق

الترجمة والنشر بيعاً وشراءً، ويعرض إصداراته الإبداعية الجديدة – إن وجدت – ويعـــرف بها.

فمعرض فرانكفورت ، يمنع فيه بيع الكتب، إنما تقدم للعرض والتعريف فقط، وغالبـــاً ما يكون مصير الكتب المعروضة فيه الإهداء للمؤسسات الثقافية أو للأصـــدقاء، ويســـمح ببيعها في اليوم الأخير فقط.

وهذا ما يجعله عقيماً في نظر معظم الناشرين العرب الذين يقيسون نجاح المعرض بقدر ارتفاع رقم المبيعات فيه.

ومعرض فرانكفورت مكلف أيضاً، من حيث أجر المشاركة ونفقات الإقامة.

وذلك كله يجعل دور الناشرين العرب في معرض فرانكفورت قاصراً وهامشـــياً، ولا يشكل حضورهم حجماً يتناسب مع حجم الثقافة العربية الإسلامية التي يمثلونها، فضلاً عن تفرق أجنحة المشاركين منهم، بين أجنحة زملائهم الآسيويين على تعدد لغـــاتهم وألـــوانهم وسحناتهم. في حين أن أجنحة الشعوب المتقدمة تبلغ أحجاماً كبيرة، وتحتل مباني ضـــخمة مستقلة، تحكي ضخامة الثقافات التي يمثلونها، وقدرتها على المنافسة والاختـــراق في ســـوق المعلومات والأفكار.

تجربة الاتحاد العام للناشرين العرب لهذا العام ٩٨:

لقد استطاعت لجنة المعارض في الاتحاد العام بالتفاوض والتعاون مع إدارة المعـــارض، الحصول على تخفيضات مناسبة في الأجور، مع مكان واسع في صالة مناسبة في المبنى (٢/٩)، وعنيت بترتيبه وتنسيقه مما مكنها من استيعاب عـــدد المشـــاركين العـــرب اللبنـــانيين والسوريين والسعوديين والخليجيين، ولم يستطع الناشرون المصريون الانضواء تحـــت هـــذا الجناح بسبب ارتباطات سابقة مع إدارة المعرض، سيتم تلافيها وتوحيد الجناح العـــربي في دورات المعرض القادمة.

كما قدمت اللجنة في هذا الجناح المشترك، خدمات مشتركة؛ للمساعدة والترجمة، تطمح إلى تنميتها مستقبلاً.

ولم تتوان إدارة المعرض عن عناية خاصة بالجناح العربي، وخصصت له موظفين سهروا على توفير جميع الشروط والظروف الملائمة للعارضين.

لقد كانت تجربة الاتحاد العام للناشرين العرب، خطوة أولى ناجحة بكل المقاييس.

اقتراحات للدورة القادمة، لجناح عربي مشترك ينظمه الاتحاد العام للناشرين العرب:

لا بد لتشجيع الناشرين العرب على المشاركة بكثافة في معرض فرانكفورت، من تقديم تسهيلات وخدمات وتوفير مزايا وفرص، تؤكد لهم أهمية المشاركة وجدواها، ويمكن أن يتمثل ذلك بما يلي:

١ – الموقع: السعي للحصول على موقع مناسب في أفضل مباني المعرض، يعهد بتنسيقه إلى مهندس مختص يحقق الأهداف التالية:

آ – فرص عرض متساوية لجميع العارضين، تتجنب الزوايا الميتة، والدكاكين العميقة، إلى العرض الجبهي ما أمكن.

ب – فضاءات واسعة للزوار.

ج – شخصية موحدة ومميزة للموقع.

د – أركان وزوايا للخدمات: ركن استعلامات و(حاسب) وأركان استراحة.

هـ – غرف اجتماعات مشتركة: يجري التنسيق لها وترتيب المواعيد فيها بشكل مسبق ومتكافئ ومنظم من إدارة الجناح العربي المشترك.

٢ – الإدارة المشتركة: يعين لها مدير كفء ومساعدون يتقنون عدة لغات، ويعرفون إصدارات المشاركين ويعرضونها، كما يرعون مصالح العارضين جميعهم بشكل متكافئ، دون تمييز بسبب الاتجاه، أو الحجم أو الغياب، ويتم التعريف والتعارف مسبقاً.

٣ – التسهيلات:

آ – تخفيض الأجور ما أمكن.

ب – شحن مشترك، وتخليص أرخص بالاعتماد على مختصين عرب.

ج – توفير الإقامة بمستويات مختلفة، وفي وقت مبكر، ويمكن لذلك الاعتماد على شركات عربية متخصصة مقيمة في ألمانيا.

٤ – العرض:

آ – توفير وسائل وأساليب عرض مناسبة.

ب – الاقتصار على الجديد المميز من إصدارات الدور.

ج – تخصيص لوحة لأبرز الإصدارات العربية (تحدد بموجب ترشيح مسبق ولجنة تحكيم).

٥ – استثمار الحضور العربي، بتنظيم:

آ – ندوة حول سبل تنشيط التسويق، وتذليل صعوباته.

ب – حلقات نقاش حول: كتاب مميز، مؤلف مميز، ناشر مميز.

ج – حفلات استقبال للتعريف والتعارف، يدعى لها ناشرون وموزعون عرب وأجانب، ويتم التعريف بهم.

٦ – توفير فرص لاستفادة العارضين من المعرض، وأخذ بيدهم لبناء وتنمية علاقات مشتركة للترجمة، وبيع وشراء الحقوق، والتوزيع.

٧ – السعي لتنشيط الزيارات للمعرض، من قبل الجامعات، المراكز الإسلامية، بالمراسلة المسبقة، والعلاقات الشخصية.

٤ – معرض واحد متنقل للكتاب العربي

يمثل الاتحاد العام للناشرين العرب صورة تطبيقية نموذجية من صور التضامن العربي، تستحق أن تلقى مزيداً من الوعي الذاتي من الناشرين العرب بها، ليقوموا بتنميتها وتطويرها، وأن تلقى مزيداً من الاهتمام من المجتمع والهيئات الرسمية لتسهل سبل هذا النمو والتطور.

ويشكل الاقتراح الذي قدمه أحمد يوسف القرعي في العدد ٩٢ من مجلة الأهرام العربي الصادر في ٩٨/١٢/٢٦، بمناسبة اقتراب موعد معرض القاهرة الدولي للكتاب، مشروعاً يستحق الوقوف عنده، والتأمل ملياً به، قبل أن يذهب أدراج الرياح، أو يستقر في أحد أدراج الأرشيف الصحفي.

نص الاقتراح – كما ورد في العدد المذكور تحت عنوان (قافلة الثقافة) –: ((إقامة معرض واحد متنقل للكتاب العربي، يكون نواة حقيقية لسوق ثقافية عربية واحدة، لا يكون الكتاب سلعته الوحيدة، وإنما كل صنوف الإبداع العربي؛ كاللوحة الزيتية، والتمثال المنحوت، وإنتاج مختلف الفنون التشكيلية، والأفلام والمسرحيات..إلخ)).

ويضيف الاقتراح: ((ولكن كيف يمكن إقامة معرض واحد للكتاب العربي، وكل عاصمة عربية تحرص الآن على إقامة معرض خاص بها؟.

والإجابة ببساطة شديدة تنحصر في مجرد تعديل مواعيد إقامة هذه المعارض بحيث تعقد كل أسبوعين في عاصمة عربية بالتتابع وفق برامج سنوية معلومة، بحيث ينتقل المعرض تباعاً خلال أسبوع ثالث إلى العاصمة الأقرب جغرافياً، لكي يتحقق التواصل المفقود بين معارض الكتب العربية من ناحية، ويتحقق أيضاً التبادل المعرفي العربي من خلال الكتاب بين جناحي الوطن العربي الكبير مشرقه ومغربه.

ولو تحقق التنسيق والتكامل بين معارض الكتب العربية على هذا النحو لحقق للمـــرة الأولى أطول قافلة ثقافية يشهدها الوطن العربي منذ حضارته الأولى. ولنجاح التجربة مـــن الممكن أن يبدأ تطبيق الفكرة بمعرض صغير يضم عناوين ألف كتاب عربي مختار من أحدث إصدارات دور النشر العربية، وتسمح بوابات الجمارك على الحدود السياسية بالمرور البري لكتب المعرض، وبنجاح المعرض العربي الصغير عندئذ يمكن تطويره وتوسيعه ليشكل ســـوقاً ثقافية عربية بالمعنى الاقتصادي للمصطلح.. هذا إن صح التعبير.. وإن صدقت النوايا العربية!))

أرى أن الفكرة رائعة جداً، وأنها تشكل حلماً يراود الإنسان العربي، وأن الاتحاد العام للناشرين العرب هو الأولى والأجدر بتلقف هذا الاقتراح والبدء بتنفيذه على الفور، وليكن نواة لسوق ثقافية عربية مشتركة، يتوقع لها أن تنمو وتزدهر وتتجذر وتتفـــرع، وتتبعهـــا أسواق عربية مشتركة أخرى، ويتوق الإنسان العربي إليها في عصر العولمة والذوبان.

وسيكون للاتحاد العام للناشرين العرب فضل التقاط البذور الجيدة بغرسها في الأرض العربية المعطاء الطيبة، وفضل التحول بالمجتمع من صيغة الكلام والأحلام، إلى صيغة الفعالية والتطبيق.

وليحتفظ الاتحاد العام للأستاذ أحمد يوسف القرعي بحق توليد هذه (الفكرة الرائعة) تأكيداً لاهتمامه الفذ بحماية حقوق الملكية الفكرية.

ويبقى السؤال الكبير، متى سيتحول الحلم إلى حقيقة؟ وهل ســـيتولى الاتحـــاد العـــام للناشرين العرب توليد هذا (الجنين)؟!

الفصل الخامس

نحو سوق عربية مشتركة للكتاب

١ – حركة الكتاب العربي*[٥]

سعر الكتاب العربي

لا أرى أسعار الكتاب العربي مرتفعة، بالمقابلة مع أسعار الكتب الأجنبية من جهة، ومع أسعار السلع الأخرى من جهة أخرى، وليس من مصلحة الناشر أن يرفع سعر الكتاب في مجتمع عازف عن القراءة.

إن الشعور بغلاء سعر الكتاب مرده في نظري إلى ضعف شعورنا بأهميته لنا وحاجتنا إليه، فالكتاب عندنا لا يرقى إلى مستوى الحاجة كالكساء بله الرغيف، والإنسان العربي لا يهتم بالكتاب إلا عندما يكون على مقاعد الدرس، أو ما يشبهها من حلقات العلم، فإذا غادرها ارتكس في أمية لاحقة من العزوف القرائي، ربما كانت أمية القراءة والكتابة أهون منها.. الأمر الذي يجعل الكتاب في مرتبة أدنى من الكماليات في حياته إذ هو لا يشعر بأي حاجة إليه، وفي مثل هذا الوضع لن يقرأ الكتاب مهما أرخصت له في سعره، ولو قدمته له مجاناً فلن يقرأه.

فالمسألة في نظري مسألة عرض وطلب، فقد كان الإنسان العربي يبحث عن الكتاب ثم أصبح الكتاب، في الثلث الأخير من القرن يبحث عن قارئ، وما دعوى غلاء السعر إلا تعلة يريد أن يسوِّغ بها عزوفه القرائي.

---

[٥] أسئلة وجهتها إلى المؤلف صحيفة الأهرام القاهرية في ١٩٩٨/١/٢٢

وحديث السعر طويل لا تتسع له هذه العجالة، ودعوى غلاء سعر الكتاب دعوى سطحية لا تنفذ إلى عمق المشكلة.

سوق عربية مشتركة للكتاب

جميل أن يكون للكتاب سوق، وأن تكون هذه السوق عربية. إن هذا يثير لدينا أفكاراً هامة:

١ – فلكي يكون للكتاب سوق، ينبغي أن نقوم بجهود مكثفة من أجل معالجة مشكلة (العزوف القرائي) التي باتت تهدد المستقبل الثقافي للأمة العربية.

ولا حاجة بنا إلى حشد الإحصاءات عن عدد العناوين الجديدة التي تصدر سنوياً في العالم العربي، وعدد النسخ التي تطبع من كل منها، ونسبتها إلى عدد السكان، وعدد الدقائق التي يقضيها الإنسان العربي في القراءة.. لا حاجة بنا إلى هذه الإحصاءات لنثبت أن أمة ﴿ اقرأ ﴾ باتت لا تقرأ، وأن الكتاب بات لا يرقى عند الإنسان العربي إلى مستوى الكماليات، فضلاً عن أن يكون حاجة يجتهد لتلبيتها.

علينا في البداية إذن، أن نحدث سوقاً للكتاب من خلال تنشيط عادة القراءة، وتنمية الحس النقدي بإثارة المعارك الأدبية، لتأخذ مكانها في اهتمامات الجماهير إلى جانب المباريات الرياضية، وتشجيع الإبداع بتقديم الجوائز والمكافآت للمبدعين وفق معايير مدروسة تأخذ بالاعتبار تلبية حاجات الأمة الثقافية.

إن هذه المهمة الصعبة تقع على عاتق كل الأجهزة التربوية والثقافية والإعلامية في المجتمع، على صعيد المدرسة والأسرة والمؤسسة، وتبدأ من الطفولة، إذ إن تأسيس التربية، خير من معالجة مشكلاتها ويوضع لها برنامج يحدد غاياتها ووسائلها وأهدافها المرحلية.

وينبغي العمل على أن يدخل في وعي الإنسان العربي أن أمة تقرأ، يعني أمة ترقى، وأن مستوى القراءة لدى أية أمة يشير إلى مستواها الحضاري، وأن الحضارة مرتبطة بالكتاب تزدهر بازدهاره، وتنحسر بانحساره.

وعلى الرغم من أن مهمة إعادة الأمة إلى عالم القراءة تبدو صعبة، وتحتاج إلى تضافر جهود رسمية ومؤسساتية كبيرة، فإني أرى أن بوسع كل فردٍ أن يسهم فيها، وأن يكون مؤثراً في ترقيتها.

ودار الفكر كناشر عربي سوري، أطلقت منذ بداية عام ١٩٩٦ شعار (بناء مجتمع قارئ أولوية لبناء مجتمع سليم)، واتخذت لتطبيقه عدة رسائل كان منها: بنك القارئ النهم، وخدمة القراءة السريعة، ومكتبة الإعارة المجانية، وبطاقة الإهداء الشخصي، والمكتبة السمعية البصرية، واستطاعت أن تبني شبكة اتصال مباشر مع قرائها يبشر بنجاح جيد لهدفها.

٢ – ولكي تكون سوق الكتاب عربية – وهي لا بد أن تكون كذلك، بحكم وحدة اللغة والقضية والأمل والمآل، ومن ثم وحدة السوق، فإن علينا أن نعمل بجد لتحقيق الخطوات التالية.

أ – إحياء اتفاقية تيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي التي أقرها مؤتمر وزراء الثقافة العرب المنعقد في دمشق عام ١٩٨٧ بدورته السادسة والتي دعا فيها الدول العربية للتوقيع على هذه الاتفاقية واتخاذ الخطوات اللازمة للتصديق عليها. والتي رحَّبت بها المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، ومما جاء في هذه الاتفاقية:

-إعفاء الكتاب ومواده الأولية من الرسوم الجمركية.

-منحه أولوية النقل بين الأقطار العربية.

-تخصيصه بتعرفات نقل مخفضة.

ب – التخفيف من قيود الرقابة على الكتب، إن لم نتمكن من إلغائها البتة، وتركها إلى وعي القارئ، وقانون بقاء الأصلح.

وإخضاع هذه الرقابة إلى معايير واضحة، بدلاً من تركها للعشوائية والمزاجية الفردية.

ثم الخروج بهذه المعايير المحلية إلى صيغة عربية موحدة، بحيث تكون موافقة أجهزة الرقابة في بلد عربي صالحة لدخول الكتاب إلى بلد عربي آخر.

إن الرقابة في وضعها الراهن، تحدُّ من الإبداع والتجديد وحرية التعبير بشكل عشوائي ومزاجي محلياً، وتشكل سداً منيعاً في وجه حركات الكتاب في الساحة الثقافية العربية – على ضيقها ومحدوديتها – فلا يكاد كتاب عربي ينجو من قرارٍ يمنعه في بلدٍ عربيٍ ما، وما سمح به هنا يمنع هناك.

إن الرقابة – فضلاً عن كونها علامة تخلف حضاري، يسحب الثقة من عقل القارئ، ويعده قاصراً ينصِّب له وصيّاً قد لا يكون أهلاً للثقة – لم تعد مجديةً في عصر تفجر المعلومات، والتطور المذهل في تقنيات الاتصال، التي وضعت أجهزة الرقابة في موقف العجز

عن تطبيق قراراها.. بل إن قراراها بالمنع بدأت تأخذ مهمة الترويج للمنوع، وكل ممنـــوع مرغوب.

ج – فرض الاحترام لحقوق الملكية الفكرية؛ تشجيعاً للإبداع، وحمايـــةً للحقـــوق، والعمل على إخراج المجتمع العربي من حمأة القرصنة الفكرية التي أوغل فيها، حـــتى غـــدت الاستباحة لحقوق (الملكية الفكرية) أمراً عادياً يمارسه الفرد والمؤسسات الخاصة والرسمية، لا يشكل في نظر أحدٍ منهم جريمةً تقتل الإبداع، وتجهض كل محاولات النـــهوض وهـــدد مستقبل الأمة الثقافي والفكري.

إن استصدار قوانين خاصة حازمة لحماية الحقوق الفكرية، يشكل جزءاً من الإجراءات الضرورية، لكنه لا يكفي في ظل ثقافة الاستباحة لها، والتي تتذرع أحياناً ببعض الفتـــاوى، وتلبس مسوح الوعظ لتدعي خدمة العلم الشريف.

ولا بد من تضافر جهود إعلامية وتربوية وثقافية واجتماعية وقانونية وقضائية لاجتثاث ثقافة العقوق وإرساء ثقافة الحقوق، ضماناً لتنمية الأعمال الإبداعية، التي تشـــكل حجـــر الأساس في أية نهضة ثقافية.

د – وضع معايير للجودة يشرف على تطبيقها الاتحاد العام للناشرين العرب.

فعلى الرغم من أن الشركات والمصانع، تتسابق الآن للحصول على شـــهادة تثبـــت تقيدها بالمواصفات العامة المتوافقة مع أنظمة الجودة المنبثقة عن (منظمة التقييس العالميـــة) التابعة للأمم المتحدة، ومقرها جنيف، والمعروفة باسم (ISO 9000)، فإن الكتـــاب لا يزال بعيداً عن أية ضوابط أو معايير للجودة، ولا تزال دور النشر تقذف بكتـــب تفـــيض بالأخطاء الإملائية واللغوية، وفوضى التبويب، وعشوائية الترتيب، وانعـــدام المواصـــفات، والخلو من الحد الأدنى من المعلومات الوصفية (البيبليوغرافية) التي يحتاج إليهـــا القـــارئ، فضلاً عن توحيد هذه المواصفات وتنميطها ومعايرها.

لقد أصدرت دار الفكر في دمشق عام ١٩٨٤ دليلها لصناعة النشر متضمناً المعايير التي رأت أنها تخدم شعارها الذي اتخذته منذ تأسيسها ١٩٥٧م ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))، والتزمته في سائر منشوراها، وهـــي الآن بصـــدد تطـــويره لاســـتيعاب المستجدات.

إن المعايير العالمية للجودة أخذت تفرض نفسها في السوق العالمية، في مختلف الأنشطة الصناعية، وما لم يبادر الناشرون العرب عبر اتحادهم العام إلى تنميط هذه المعايير والتزامهـــا فإن القرن المقبل يوشك ألا يعبأ بصناعة للنشر لا تحكمها المعايير.

وبعد، فإننا إن تمكنا من توفير أرضية صالحة لسوق الكتاب، من خلال بنـــاء مجتمـــع قارئ، ومن تيسير انتقال الكتاب بين الأقطار العربية، ورفـــع قيـــود الرقابـــة أو معايرهـــا وتوحيدها، ومن الحد من قرصنة النشر، ووضعنا معايير لجودة الكتاب، نكون قـــد وفرنـــا المناخ الملائم لانطلاق سوق عربية نشطة للكتاب.

ولسوف تتكفل آليات السوق، والتنافس الذي أصبح يعتمد معايير الجودة، بتحديـــد الشكل الذي ستكون عليه (السوق العربية للكتاب).

ماذا يحكم سوق النشر العربي؟

بالإضافة إلى حالة العزوف القرائي التي سبق الحديث عنها، فإن سوق النشر العـــربي يحكمه عوز إبداعي يتمثل فيما يلي:

-ركود حركة النقد، وفتور المعارك الأدبية، التي كانت تزكي روح التنافس الإبـــداعي والتكاملي بين الأدباء والكتاب، وتحوُّل هذه الحركة إلى نوع من التقريظ والمديح والمجاملـــة بين الكتاب.

-شيوع ثقافة الاتجاه الواحد، وغياب الرأي الآخر، وتجاهله ونفيه، ومعلـــوم أن ثقافـــة الاتجاه الواحد مآلها الشيخوخة والفناء، وأن بارقة الحقيقة لا تنقدح إلا باحتكاك الأفكـــار وتصادم الآراء. وأن الحوار البناء في ظل تعدد الآراء هو المناخ الوحيد الملائم لكسر الحواجز الشاهقة القائمة بين الاتجاهات الفكرية، ولنمو الإبداع.

-الانكفاء إلى التراث اجتراراً و تكراراً وشرحاً واختصاراً حتى بـــات يشـــكل ركامـــاً مكدساً يُطاف حوله دون أن يُتناول بشيء من الاعتصار بحذف مكرراته وما فات أوانـــه، ومن التحليل وإعادة البناء والتركيب يصبح معه مرتكزاً صالحاً للإضافة عليه والبناء فوقـــه بشكل يتفاعل مع ثقافة ومعارف العصر.

معارض الكتاب العربية

لقد فقد كثير من المعارض العربية للكتاب جدواه، وذهبت عوامل الشيخوخة والهـرم بألقه وحيويته، وتحوَّلت به الرتابة والتكرار إلى طقس يؤديه المنظمون للمعارض بوصفه أحد واجباتهم الوظيفية، وعادة يمارسها العارضون والزوار وسيلة للترويج والتسلية، وأفقده الإلف دوافعه وأهدافه، فتخلف عن إعطاء نتائجه المرجوة، وتوهم منظمو هذه المعارض أن الخلـل في الشروط، فراحوا يزيدون القيود ويرفعون الأجور لرفع مستوى المعرض، وراح العارضون يحتالون للتخلص من القيود المفروضة، ولاستدراك ما فاتهم بالتكديس والتكريم دون التفات إلى النوع والجودة، فتحوَّلت العلاقة بين المنظمين والعارضين إلى المناورة والصراع بدلاً من التعاون والتكامل.

ولابد لكي تؤدي المعارض أهدافها من وعي الحقائق التالية:

١ – إن لمعارض الكتاب أطرافاً ثلاثة؛ هي المنظمون والناشـرون والـزوار. لا تـنجح المعارض إلا بتوفير المناخ الملائم لتعاونها وتحقيق رغباتها المنسجمة مع أهداف المعارض.

٢ – إن التجديد المستمر وابتكار الأساليب الجديدة في الإعلان والعرض والدراسـات المعمقة والمشتركة لحل المشكلات وإزالة العوائق وتجاوز الصعوبات هـو وحـده الكفيـل بالمحافظة على شباب المعارض، وتنميتها وازدهارها.

٣ – إن وضوح المعايير، وضبط المقاييس والمواصفات، عند تقـديم الحـوافز، وتكـريم المتفوقين، يدفع إلى التنافس لتنمية الإبداع، وتقديم الأفضل.

٤ – إن تجميع الجهود عبر اللجنة العربية لمنظمي المعارض، والاتحـاد العـام للناشـرين العرب، وقيامهما بدراسات معمقة لمشكلات المعارض جديران بالخروج بالمعارض العربيـة للكتاب من أزمتها الراهنة، والمضي بها قدماً لتحقيق أهدافها.

وبعد، فإن الحديث عن المشكلات التي تعترض حركة الكتاب العربي، وتشل فاعليـة الإبداع الفكري، حديث متشعب ذو شجون وإن اهتمام (الأهرام) بفتح ملف (الكتاب العربي) ينم عن وعيها لأهمية الكتاب في حياة الأمم ومستقبلها ونهوضها، وهو وعي عودتنا (الأهـرام) امتـداده في مسـتوى الـوطن العـربي.

ما نتمناه على (الأهرام) أن لا تغلق هذا الملف إلا بعد أن تتحقق أهدافها في الكشـف عن مواطن الخلل، ووصف طرق العلاج، وإيصالها إلى مراجعها، ومتابعة خطوات تنفيـذها

وهو ما يتطلب منها مزيداً من الاستطلاعات والمقابلات الصحفية والنـــدوات المتخصصـــة والدراسات المعمقة بعيداً عن السطحية والآراء المرتجلة.

إن الكتاب العربي، يئن تحت وطأة العزوف القرائي والأمية اللاحقـــة، ويكـــافح في مواجهة الإعلام المرئي المتدفق عبر الفضاء مصراً على إزاحته عن منبر التثقيـــف والتعلـــيم، ويدافع عن وجوده في صراع مريرٍ مع الأقراص الممغنطة وشاشات الحواسب.

هل نترك (الكتاب) الذي أدى الدور الرئيس في إنهاض الأمم وبناء الحضارات يخـــر صريعاً في معركته مع بدائل لم تثبت لنا جدواها وقدراتها بعد؟!

ليس ذلك من شيم العربي الوافي.

٢ – أثر العلاقات السورية اللبنانية في مهنة النشر*[٦]

يرتبط الشعبان السوري واللبناني بوشائج وثيقة وعميقة، لم تتأثر يومـــاً مـــن الأيـــام بالحدود الفاصلة بينهما، ولا بالأزمات السياسية العابرة التي هبت عليهما، ويندر أن تـــرى أسرة لبنانية لا ترتبط بصلة قربى مع أسرة سورية، فضلاً عن وحدة العادات واللهجات..

لذلك فإن كل الإجراءات والاتفاقات الجارية إنما تأتي لتؤكـــد عمـــق هـــذه الـــروابط والعلاقات لا لتنشئها، وتنطلق من رصيد تنظمه وتنسقه ولا توجده.

[٦] كتبت لجريدة الحياة في ٣١/١٠/١٩٩٨م.

وإذا كان لتوثيق العلاقات السورية اللبنانية وتنظيمها آثار ملموسة في قطاعات الاقتصاد المختلفة؛ الزراعية منها والصناعية والتجارية، فإن للكتاب وحركة النشر خصوصية تقتضي تمييزهما، فلا يمكن أن نتعامل مع الكتاب كما نتعامل مع أية سلعة اقتصادية أخرى.

الكتاب فكر مرتبط بثقافة الأمة العربية بمجموعها، فهو عربي أياً كان مصدره، لبنانياً أو سورياً أو مصرياً أو جزائرياً، لا يجوز تأطيره أو تقييده بحدود.

وحالة العزوف القرائي في الوطن العربي، تزيد من تضييق الساحة الثقافية التي يتحرك الكتاب العربي ضمنها، مما يجعل التخفيف من قيوده، وتيسير انتقاله بين البلدان العربية ضرورة قصوى لتنشيط صناعة الكتاب، وتنمية ثقافة الأمة وتوفير المناخ الملائم للإبداع فيها.

لذلك نرى صناعة النشر تزدهر حيث توجد للكتاب، حرية أكثر وقيود أقل.. وهو ما تحقق لها في لبنان، الذي أصبح المركز الأهم في الوطن العربي لإنتاج الكتاب وتصديره، واستقطب الجهود الفكرية للمبدعين من سائر الأنحاء، وأعد الوسائل اللازمة لدعم هذه الصناعة من دور للخدمات الطباعية في كل المراحل، ودور للنشر والتوزيع، وأخرى للتصدير والشحن بكل أشكاله البري منها والبحري والجوي، وبما يكافئ الحجم الكبير للإنتاج، ويحقق للاقتصاد اللبناني رقماً كبيراً، يشكل دعماً ملحوظاً لميزانه التجاري، وثقلاً في الميزان الثقافي يرشح بيروت عاصمة ثقافية عربية لعام ١٩٩٩ خلفاً للشارقة عاصمة الثقافة العربية عام ١٩٩٨.

وبذلك يكون لبنان - بما يملكه من مناخ تعبيري ملائم، ومن أدوات لتصنيع الكلمة وتصديرها - قد استقطب طاقات المفكرين العرب، لتمده بالمادة الفكرية الخام، لطباعتها وإعادة تصديرها تلبية للحاجات الثقافية للأمة العربية في بلدانها المختلفة.. ولعله بذلك يكون قد حقق نوعاً من التكامل المنشود.

أما بالنسبة إلى الوضع الراهن في العلاقات السورية اللبنانية في قطاع النشر، فمن الممكن أن نلاحظ:

١ - أن لمعظم الناشرين السوريين مكاتب وفروعاً في لبنان، تشكل نافذة لهم إلى الأسواق الخارجية.

٢ - أن الناشرين السوريين كثيراً ما يستفيدون من بعض الخدمات الطباعية المتقدمة في لبنان، وخاصة في مجال التجليد والتغليف.

٣ – أن سورية تشكل سوقاً جيدة للكتب والمجلات المنتجة في لبنان أو الموزعة عن طريقه، تقوم بنقلها المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.

٤ – أن التعاون الوثيق بين الناشرين السوريين واللبنانيين، كان له أثر كبير في تنشيط الاتحاد العام للناشرين العرب، وتفعيل جهوده في سبيل الارتقاء بصناعة النشر.

٥ – ونطمح من خلال الاتحاد العام للناشرين العرب أن نتمكن من تذليل الصعوبات التي تعيق نشر الكتاب العربي وتيسر سبل انتقاله بين بلدان الوطن العربي وفي طليعة هذه السبل:

آ – إعفاؤه من الرسوم المالية الباهظة المفروضة على دخوله إلى معظم هذه البلدان.

ب – إلغاء القيود الرقابية التي لم تعد مقبولة في عصر المعلوماتية، أو تخفيفها ووضع المعايير الواضحة لها لتجنب عشوائية المنع؛ إن لم يكن منه بد.

ج – إعادة النظر في قوانين حماية الملكية الفكرية، والتشدد في صيانة هذه الحقوق، تشجيعاً للإبداع من جهة، وحداً من عقلية الاستباحة لهذه الحقوق السائدة في الساحة الثقافية العربية.

تلك المعوقات التي نضعها بين أيدي وزراء الثقافة العرب في لقائهم منتصف تشرين الثاني (نوفمبر ١٩٩٨)م في الشارقة.

٣ – كتاب بلا حدود*[٧]

الحلم والواقع: إننا نقرأ ونسمع عن أطباء بلا حدود، وعن مراسلين بلا حدود، ونشاهد فضائيات تعبر القارات بلا حدود، ونعيش عولمة تصهر العالم في بوتقة **بلا حدود**.. فهل نحلم يوماً أن يكون لنا (كتاب) **بلا حدود؟!**

[٧] كتبت لمجلة (الناشرون)

أم أن الحدود صفة للكتاب ملازمة له، لا تنفك عنه ما دام حبراً على ورق، لم يتحول إلى أقراص ممغنطة، وشاشات مضاءة، وبرامج فضائية؟!

أمّا أن الحدود والقيود ضربة لازب، وصفة من صفات الكتاب، لا تفارقه، فلم يكـــن الكتاب كذلك، يوم كنا نتسنم ذروة الحضارة، وقد كان العالم الذي يؤلف كتابه في الشام، يجد كتابه قد سبقه إلى الأندلس، أو إلى مصر أو ما وراء النهر، وأشبعه الطلبة والنقاد درساً وتمحيصاً، إذا هو أزمع الرحلة إلى بعض هذه البلاد ويمم شطرها.. سيان في سرعة انتقاله أن يكون مضمونه مواتياً للفكر السائد أو مخالفاً، بل إن جدته وطرافته وإبداعه، ومخالفته عوامل حافزة على سرعة الانتقال. والانتقال يومها كان على ظهور الإبل والبغال.

ولم يكن الكتاب كذلك في فجر نهضتنا الحديثة، حين كان ينتقل في أرجاء الـــوطن العربي يعبر الحدود بكل حرية وترحاب.

وأمّا أن يكون (كتاب بلا حدود) حلماً يداعب أجفاننا، فلنقف هنيهة على الحدود، ولننظر ما يكابده الكتاب في انتقاله عبرها!!

إن انتقال الإنسان من بلد إلى بلد، قد يستلزم تأشيرة للخروج من دوائر الهجرة في بلد الإقامة، وأخرى للدخول من سفارة بلد المقصد.. أما الكتاب فإن انتقاله يحتاج لمزيد مـــن المعاملات الرقابية والمالية والأمنية والجمركية، ولكثير من الامتحانات الصعبة، إن هو أفلـــح في اجتيازها في بلد، عجز عن اجتيازها في بلد آخر.. فهو لا بد من أن يكون مقبولاً هنـــا ومرفوضاً هناك وسط رقابات متباينة، وقرارات عشوائية تفتقر إلى المعايير المشتركة.

ثم إن الوقت الذي تستغرقه هذه الإجراءات والامتحانات قد يمتد عدة أشهر، تفصـــل القارئ عن تاريخ صدور الكتاب، وفي عصر أصبحت المعلومات تنهمر عليه من كل مكان حيثما كان، في لحظة صدورها. وتسارع تطوُّر المعلومات وتوليد الأفكار فيـــه إلى درجـــةٍ قصَّرت من عمر المعلومة، وعرضتها لسرعة الشيخوخة والبلى.

فإذا اطلع القارئ من خلال أجهزة الإعلام على إعلان عن كتاب، وتلـــهف علـــى اقتنائه، واجهته عقبة الرقابة، وأمَّله طول الانتظار، حتى يفتر حماسه للكتاب، بعد أن يكون الكتاب قد فقد جدته وبهائه، أو يكون قد أهمل وفات أوانه.

الذرائع والدوافع: تتذرع أجهزة الرقابة بالخوف على مستقبل الثقافة، وضرورة تحقيق الأمن لها، وتجنبيها ما يعكر صفوها أو يشوش عليها. وهي بهذه الذرائع تفترض قصوراً في وعي القارئ فتفرض عليه وصايتها لتقول له: اقرأ ولا تقرأ.

وقبل أن نبحث في جدوى هذه الأوامر والنواهي، ومدى قدرة أجهزة الرقابة على تطبيقها، علينا أن نحاول فهم المسوِّغات والدوافع من ورائها.

ذلك أن هذه الدوافع غالباً ما تكون نبيلة، يحدوها الخوف على الأجيال من الانحراف والرغبة في تقديم الأفضل لهم.

لكنَّ الأفضل لهم في مجال الثقافة لا يتأتى إلا من خلال الإبداع، وتوليد الأفكار، والأفكار كائنات حية لا تتوالد إلا بالتزاوج، ويعبر عنها المثل التركي أروع تعبير: ((بارقة الحقيقة لا تنقدح إلا عند تصادم الأفكار))، فإذا ما وجهت الأفكار في اتجاه واحد – هو ما يمليه الوصي، أياً كانت وصايته؛ سياسية أم اجتماعية أم دينية – عقمت وعجزت عن الإنجاب، ثم أدركتها الشيخوخة والفناء.. فتكون الرقابة قد أسهمت – بفرط محبتها للثقافة – في وأد الثقافة وقتلها، ((ومن الحب ما قتل)).

ثم إن للثقافة آفاقاً لا تحدها الحدود، ولا تستوعبها القوالب الجاهزة، فكيف تستطيع أجهزة الرقابة – مهما توسعت – أن تستوعب الأفكار والإبداعات – مهما تضاءلت –؟! هل يستوعب المحدود غير المحدود، إلا إذا أمسك بخناقه وكتم أنفاسه.. وهيهات أن يتأتى له ذلك؟!

ولعل من الدوافع – النبيلة وغير النبيلة – للرقابة؛ أن تحافظ على استقرار الأفكار في المجتمع، والحيلولة دون التشويش عليها بأفكار جديدة قد تكون مخالفة للمألوف، فإذا صح ما يقال من أن أحوال المجتمعات ما هي إلا ثمرات أفكارها، كان ما تعانيه الأمة من التخلف نتيجة لما تحمله من أفكار وتصورات، وكانت محافظة الرقابة على استقرار هذه الأفكار والتصورات إسهاماً منها في إطالة أمد تخلف الأمة، وكانت قرارات المنع الصادرة عنها وأداً للإبداع، وحرماناً للقارئ من ممارسة حقه في الاطلاع، وبحثاً عن خلاصه خارج إطار المسموح والمفسوح والمألوف والمكرر والراكد.

وما عسى أن تكون المؤهلات التي تتمتع بها أجهزة الرقابة هذه.. مهما علت تلك المؤهلات، أهي مؤهلة للوصاية على المؤلف، وقد يكون هذا الأخير قد أفنى عمره في تكوين

ثقافته؟ أم هي مؤهلة لفرض الحجر على القارئ، وغالباً ما يكون هذا القارئ أكثر وعيـــاً، وأشد نهماً للقراءة من الوصي عليه؟!

المعايير المشتركة: وما معايير هذه الرقابة؟ لماذا تسمح؟ لماذا تمنع؟ أغلب ظني أن قرارات الرقابة عشوائية مزاجية مسكونة بالخوف من الإبداع، والرعب من تجاوز المألوف، والهلـــع من تحريك الراكد والمستنقعات الثقافية التي أسنت من طول الأمد.. وهي غالباً ما تصـــدر مبرمة لا تقبل أي طريق من طرق الطعن والتظلم، وغير معللة بسبب، حتى إذا الفكرة {وَإِذا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (*) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} [التكوير: ٨١/٨-٩] حارت جواباً.

ولربما يخفف من وطأة الرقابة أن تكون لها معايير واضحة، وزمن محدد، وطرق للطعن والتظلم، فإذا ارتقت هذه المعايير إلى أن تكون مشتركة في أنحاء الـــوطن العـــربي، أمكـــن للكتاب أن يستخدم الإذن الصادر له في أي بلد عربي ليعبر الحدود بلا قيود، ويتحقق بعض الحلم.. إلى أن يتحقق بعضه الآخر فيتحرر الكتاب من جميع القيود والحدود، مثلما تحررت منافسته الكلمة العابرة للقارات عبر الفضائيات وشبكة المعلومات، لتصل إلى المتلقي في كل مكان، في اللحظة التي تولد فيها، غير مبالية بأجهزة الرقابة، ولا مكترثة بها.

لقد حققت الكلمة في عصر العولمة والمعلوماتية والاتصالات أحلامها، ووصـــلت إلى مئات الملايين في بيوتهم ومكاتبهم، بل وتواصلت مباشرة معهم، تاركة لأجهزة الرقابـــة أن تتسلى بالآلاف المعدودة المطبوعة من الكتاب، وأن تمارس وصايتها عليه ثأراً لكرامتها الـــتي داستها المعلوماتية.

دراسة الجدوى: أما دراسة الجدوى؛ جدوى الإمساك بخنـــاق الكلمـــة المطبوعـــة (المحدودة في عدد نسخها وآليات انتقالها ووصولها) بعد إفلات الكلمة المبثوثة في الفضاء من القبضة.

وجدوى قرارات المنع، إزاء تحديات تقنيات النسخ التصويري والمهتوف والإلكتروني.. فأتركها لصاحبة العصمة (الرقابة)، لترى في ضوئها رأيها هل تستمر أم تنسحب.

الفصل السادس

حوارات من أجل كتاب عربي أفضل

١ – حكايتي مع الكتاب*[٨]

الناشر المعروف محمد عدنان سالم مدير وصاحب واحدة من أهم دور النشر في سورية، فدار الفكر بدمشق أشهر من أن تعرف بغزارة إنتاجها ونوعية كتبها المختارة التي تلقى الرواج بالرغم من تراجع الكتاب أمام الوسائل الإعلامية والثقافية المرئية، وكساده في الأسواق.

وهو من القلائل الذين يعتبرون عملية النشر والتوزيع بحق، رسالة بالدرجة الأولى وقبل أي غرض تجاري، كما أنه في الوقت نفسه قارئ من الطراز الرفيع، ومؤلف، له آراء ومشاريع هامة حول القراءة والكتابة تنصب في إطار المشروع الثقافي لدار الفكر. وفي مكتبه بدمشق دار الحوار التالي:

كيف بدأت رحلتك مع الكتب:

حكاية طويلة تستدعي الإبحار إلى عقد الأربعينيات الذي تنتمي طفولتي إليه، وفيه بدأت صلتي بالكتاب، وبدأ وعيي الثقافي والفكري يتشكل وينمو.

لم تكن والدتي تكتب أو تقرأ، ولا كان والدي على درجة كبيرة من العلم، ولم يسبقني أخ يأخذ بيدي إلى عالم القراءة الفسيح، فأنا الطفل البكر لأبوي.

لكن مناخ القراءة والشغف بطلب العلم والمعرفة كان يخيم على أسرتي وعلى المجتمع آنذاك، وكان الشعور السائد لدى الناس كافة هو الرغبة في تعويض نقصهم العلمي عن طريق أبنائهم، فكانوا يوفرون لهم كل الشروط الملائمة للقراءة والتحصيل، ويتطلعون إلى غدٍ أفضل على يد الأجيال الصاعدة التي يبنونها.

[٨] حوار أجراه الأستاذ يوسف البجيرمي مع المؤلف، ونشر في بيان الكتب، العدد ٢٨، ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨.

ولن أستحثّ ذهني كثيراً لأتذكر أول كتاب – خارج المنهج الدراسي – قلبت صفحاته وكنت أعود إليه بين الحين والحين، فقد كان كتاب (إحياء علوم الدين للإمام الغزالي) بأجزائه الأربعة، وحرفه الرديء الذي تتواصل جمله دون تفقير ولا علامات ترقيم، وتتلاحق كلماته دون تشكيل ولا تمييز.

ربما كان مستغرباً أن يبدأ طفل صلته بالقراءة بمثل هذا الكتاب، وألا تصرفه رداءة طباعته ولون ورقه ومستوى المعلومات فيه عن الكتب، وتنقضي الغرابة حين نعرف أنه كان الكتاب الذي لفت نظري في مكتبة والدي المتواضعة، التي كان فيها إلى جانبه متن الأجرومية، ومتن وشروح أخرى في النحو والفقه والتفسير، لم أستطع آنذاك أن أوغل في شيء منها.

كان والدي تاجراً، وكان من عادة الناس آنذاك أن يقصدوا مجالس العلم في المساجد، وأن ينتظموا في مجموعات علمية يشرف على كل منها أحد العلماء يعقدون مجالسها دورياً في بيوتهم، وكان والدي الذي يصطحبني إلى بعض الدروس، وكنا – أطفال الأسرة – ننتظر بشوق كبير أن يحين موعد الدرس في منزلنا، وكان الشيخ يخصص لنا وقتاً قبل نهاية الدرس، يستقرئنا فيه بعض ما نحفظ، ويسألنا ويساعدنا على الإجابة، فنشعر بنشوة عارمة، وهو يشركنا بكل تلطف مع تلامذته الكبار.. وكنا ننتظر بفارغ الصبر خاتمة المطاف: صواني الحلوى الشامية، وزبادي المهلبية، والشاي الأخضر الذي يصنع على عين الشيخ وبإشرافه، ثم نقف في طرف الصف نتلقى من الزوار تحيات الوداع، وآيات الشكر.

لقد شاركنا الكبار في إصغائهم، وأشركنا معهم في المذاكرة واسترجاع المعلومات.. هل ثمة مناخ للتشجيع على طلب العلم ومدارسته أرقى من هذا المناخ؟

هذا في الأسرة وفي المجتمع خارج المدرسة، أما في المدرسة – سقى الله أيام المدرسة في مراحلها الابتدائية والإعدادية – فقد كانت لنا حصص للمطالعة الحرة في مكتبة المدرسة، وحصص للمطالعة الخارجية، يلخص كل منا كتاباً يستعيره ليقرأه، ويناقشه مع المدرس، وكان لذلك كله درجات تقدير وجوائز، وكنا نعتز بما نناله من هذه الجوائز.

وقد استهوتنا في هذه المرحلة المبكرة كتب المنفلوطي، وكنت كثيراً ما أختار من (النظرات) و (العبرات) جملاً أسجلها في دفتري، لأستخدمها في (واجبات التعبير..).

وما أول كتاب اقتنيته؟

وأذكر في بداية المرحلة الإعدادية أن أستاذ الأدب العربي – وكان شيخاً وقوراً ولطيفاً ومحبباً – قرأ علينا نصوصاً من كتاب (الكامل) لأبي العباس المبرّد، فأعجبنا أيما إعجاب بمتانة لغتها وقوة بلاغتها، ورحنا نجوب المكتبات بحثاً عن هذا الكتاب، فوجدنا منه عدة طبعات، أثمانها تفوق قدراتنا الشرائية، وخجلنا أن نطالب الأهل بشراء كتاب غير مدرسي، فقررنا أن نؤسس صندوقاً بيننا لشراء الكتب النفيسة، نوفر له من مصروفنا الذي نتقاضاه من الأهل. كان الواحد منا يمشي ليوفر أجور المواصلات، ويكف عن شراء الحلوى وما تعوّد الأطفال أن يشتروه، لنغذي صندوقنا المشترك، الذي ساعدنا في شراء كتب طه حسين ودواوين شوقي وكتب مصطفى صادق الرافعي وأحمد فارس الشدياق وغيرها من الكتب التي تداولناها أيام الدراسة، ثم اقتسمناها قبل أن نفترق.

ثم تنامت عندي الرغبة في القراءة، وفي اقتناء الكتب، مع تدرجي في مراحل الدراسة الثانوية والجامعية، ومع اتساع الآفاق الثقافية، في مجتمع كان يمور بالحركة والمنافسات بين مختلف التيارات الفكرية، وكان ذلك مما يدفع الشباب المثقف آنذاك لتتبع النشاط الفكري وحركة النقد؛ التي كان يقودها كبار أمثال الزيات والعقاد والمازني وطه حسين وعلي الطنطاوي.. من خلال مقالاتهم في المجلات التي كان أبرزها وأكثرها أثراً فينا (مجلة الرسالة)، ومن خلال كتبهم التي تتبارى دور النشر في إصدارها، وكنا نتسابق لاقتنائها، وتنمية مكاتباتنا المنزلية بها.

كيف أسست مكتبتك الخاص، وما هي محتوياتها من كتب وموسوعات؟

مكتبتي الخاصة ليست كبيرة، وعدد العناوين فيها – بين موسوعات ومجموعات أو كتيبات – لا يتجاوز خمسة آلاف عنوان.. و لم يكن ذلك بسبب قلة مشترياتي من الكتب، وإنما كان بسبب إهمالي لفهرستها، وإسرافي في الإعارة منها دون قيود مسجلة، وأنا على الرغم من عدم قناعتي بما يقال من أن آفة المكتبات الإعارة، فإني أنصح باستخدام بطاقات الإعارة، لكل كتاب بطاقة ترافقه، لا تنفصل عنه إلا عندما يعار الكتاب فيدون عليها اسم المستعير وتاريخ الإعارة وتودع في درج خاص لتكون مذكرة للمطالبة بالكتاب.

وكنت أهتم بالكتب الفكرية والأدبية واللغوية والتربوية، فظلت مكتبتي فقيرة بالموضوعات الأخرى العلمية والنفسية، عدا بعض الموسوعات العربية، وهي قليلة.

كيف دخلت عالم التأليف والنشر؟

مارست المحاماة بعد تخرجي في كلية الحقوق عام ١٩٥٤ لمدة قصيرة، لم أنسجم معها، و لم ترض تطلعاتي الفكرية والثقافية، فاغتنمت أول فرصة سنحت عام ١٩٥٧ لتأسيس دار الفكر بالاشتراك مع الزميل الأستاذ محمد الزعبي، الذي كان يشاطرني الميول والطموحات، وكانت نواتها مطبعة صغيرة ما زالت تنمو لتواكب تطور دار الفكر وجهودها المميزة والجادة في صناعة النشر.

ومنذ البداية وضعنا معايير لما تتبنى الدار نشره، ترتكز على أسس من الموضوعية والعلم والإبداع، والتطوير، والحوار من دون تقوقع أو انغلاق أو انكفاء إلى الماضي أو اجترار للمحصول المعرفي المتراكم، واعتمدنا هذه المعايير؛ لتكون أساساً في تقويم ما يقدم إلينا من المخطوطات للنشر.

وهكذا كان كل مخطوط يقدم للدار خاضعاً لنوعين من التقويم أولهما علمي؛ ينظر في جدواه العلمية من حيث الصحة والإبداع، ويبحث عن الإضافة التي قدمها على المتراكم في موضوعه. وثانيهما اقتصادي؛ ينظر في جدواه الاقتصادية ومدى حاجة الناس إليه واهتمامهم به. فإذا سقط الكتاب علمياً، رفض مهما تكن جدواه الاقتصادية. كما أن الدار ترفض جميع الكتب الهابطة، وكتب الغرائب والعجائب والأبراج والأحلام، غير آسفة على ما يمكن أن تحققه لها هذه الكتب من أرباح تستغل حالة الجهل والاسترخاء الفكري عند شريحة عريضة من المجتمع.

ونحن في دار الفكر لا ننتظر ورود المخطوطات إلينا بشكل عشوائي، بل نحاول سلفاً أن نرصد الحاجات الثقافية للمجتمع، وحاجات المكتبة العربية، لنسدها، إما عن طريق التكليف الذي نختار له أفضل المتخصصين، وإما عن طريق مكتب الدراسات والبحوث الذي أسسناه في الدار مزوداً بمكتبة واسعة للمراجع، وببرامج متطورة على الحاسوب، مكنته من بناء قاعدة بيانات واسعة تساعده على دقة الإنتاج وسرعته.

ما هو الكتاب الأكثر رواجاً من إصداراتكم؟

على الرغم من تنوع إصدارات الدار في شتى فروع المعرفة العلمية والإنسانية، ومن تعدد برامجها الثقافية، وحسن تقبل الناس لها، وتحقيق بعض إصدارات الدار أرقاماً عاليةً في المبيعات، فإن الكتاب الأكثر رواجاً متواصلاً لديها هو (الفقه الإسلامي وأدلته) للدكتور

وهبة الزحيلي، الذي أصبح في طبعته الرابعة ١٩٩٧ مؤلفاً من أحد عشر جزءاً، بعد أن كان في طبعاته السابقة يتألف من ثمانية أجزاء.

وهذا الكتاب، من مفاخر دار الفكر، قدمت فيه عمـــلاً موســـوعياً يعـــرض الفقـــه الإسلامي بشكل مقارن بين كل المذاهب، ملبياً حاجات العصر بلغة العصر، وفهرست لـــه بطريقة علمية تسهل على الباحث الرجوع فيه إلى أي موضوع يلتبس عليـــه أو يستفســـر عنه.. فكان بمثابة المفتي في كل بيت أو مؤسسة أو مدرسة.

٢ – تجربة دار الفكر في صناعة النشر*[٩]

ما هي الأسئلة التي تطرحون في دار الفكر، وهل لها علاقة مباشرة بالأسئلة التي تطرح في سورية بالذات؟

تعيش دار الفكر في دمشق الآن عقدها الخامس، في فن الوراقة وصناعة النشر.

[٩] حوار المؤلف مع مندوب (المستقلة) اللندنية.

والأسئلة التي كانت وما تزال مطروحة في الدار، وماثلة أمامها، لتجيب عنها، وتستلهمها في عملها، أسئلة حول قضايا الحوار والإبداع، والتنوير، والجودة، ومسؤولية الناشر:

ولنبدأ بمسؤولية الناشر، فنحن لا نرى الناشر مجرد وسيط بين المؤلف والقارئ، لا يقوم إزاء الكتاب بغير دَوْرَي التمويل والتوزيع، مما يجعله حلقة ثانوية في صناعة الكلمة، يمكن تجاوزها.

إنما ننظر إلى الناشر بوصفه حلقة أساسية وفعالة في هذه الصناعة، فهو الذي — بحكم رؤيته الشاملة — يخطط، ويكلف، ويجمع، ويؤلف، ويترجم، ويحرر، وينقح، ويصحح، ويخرج، وينتج، وهو المسؤول تجاه قارئه ومجتمعه عن الكلمة التي ينشرها، والتي لا بد من أن تحمل بصمته، وتعكس شخصيته، وتشكل جمهوره.

لقد اتخذت دار الفكر لنفسها شعاراً مستلهماً من حديث الرسول ﷺ ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)).وإذا كانت الجودة — التي تقوم لتوصيفها منظمات دولية ومؤسسات — ضرورية لكل صناعة فإنها لصناعة النشر أكثر ضرورة وأهمية، لكونها منتجة لفكر الأمة، وصانعة لمستقبلها الثقافي.

وإن مما يؤسف له حقاً أن هذه المنظمات التي عنيت بمواصفات الجودة لكل الصناعات لم تهتم بتوصيف هذه الصناعة بعد، وأن القارئ ما زال يجد بين يديه كتباً مليئة بالأخطاء، سيئة الإخراج، عشوائية الأساليب، تفتقر إلى منهجية التخطيط والتبويب، فضلاً عن متانة اللغة، وسلامة المضمون. مما يلقي بعبء التأكد من الجودة على القارئ، ومدى وعيه، وحسن اختياره، وكثرة تجاربه.

ولكن هل يمكن لمعايير الجودة، حين تقوم، أن تعفي القارئ من مسؤولية الوعي، والقراءة الناقدة؛ التي تخضع كل ما نقرؤه إلى المحاكمة الذاتية، دون تسليم أو انقياد أو تبعية؟!

لقد كثرت دعاوى التنوير والتبصير والتوجيه والتقدم، وقامت لها احتكارات بين المؤلفين الناشرين، وفي رأيي أن التنوير والتقدم منهج يحكم المؤلف والقارئ؛ المنتج والمتلقي معاً، فليس المهم ما يُكتب وما يُقرأ، بقدر ما هو كيف يكتبُ وكيف يقرأ.. وبالتالي فلا مناص من الاعتماد على وعي القارئ؛ وقدرته على النقد، ومستوى المناعة الفكرية عنده،

وبذلك ينقلب كل كتاب يقرؤه إلى كتاب تنويري؛ يأخذ منه أحاسنه، ويعرض عن مساوئه، وما فات أوانه.

إن الحديث عن التنوير يجرنا إلى الحديث عن الإبداع، فالقارئ المتنور، يرصد الإبداع، ويراقب حركة الفكر، ويتلقف كل إضافة عملية، ليضعها لبنة في مكانها ضمن بنائه المعرفي، يلقي جانباً منها كل مكرر ومعاد.

إننا في دار الفكر نحترم الإبداع، وندعو إليه، ونشجعه ونمارسه، فللتراث عندنا منهج نلتزمه في تعاملنا معه، يقوم على حسن الاختيار، ودقة التحقيق، ووصله بالحاضر، وإغنائه بالفهارس والشروح وكل أساليب ومستجدات العصر، كما يقوم على اعتصار التراث، وحذف مكرراته ومهملاته، وإعادة بنائه حياً نابضاً ممثلاً لفكر الأجداد وجهودهم العلمية، جاهزاً للارتكاز عليه في بناء المعرفة الإنسانية التراكمي.

وللحداثة عندنا مكانها المرموق؛ نحرص على أن نخاطب الناس بلغة العصر، وأن تكون المشكلات التي نعالجها مشكلات العصر، وأن نستشف آفاق المستقبل لنسهم في صنعه، ونعتقد أن الجيل الذي لا يقدم إضافات معرفية على كنوز الأجداد، ويكتفي باجترارها، جيل عاطل كَلٌّ، سيتجاوزه التاريخ دون أن يأبه به، وأن مسيرة العلم لا تقف عند جيل من الأجيال، وستبقى ماضيةً إلى حيث أراد الله تعالى لها {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً} [طه: ٢٠/١١٤].

وبهدف تشجيع الإبداع، وتجاوز الخطاب التاريخي، طرحت دار الفكر منذ عام ١٩٩٧ جائزتها لأفضل رواية تعالج الواقع الاجتماعي في ضوء قيمنا الأصيلة وارتباطنا بحركة الحضارة وتقدم الإنسان نحو الأفضل.

هل لي أن أواصل الإجابة عن سؤالك الأول، بعد كل هذه الإطالة؟ أرجو أن تسمح لي بفسحة قصيرة للحديث عن الحوار الذي كنت قد بدأت به بوصفه السؤال الأول الذي التزَمَت دار الفكر منذ نشأتها الإجابة عنه.

إن إيماننا بالحوار ينطلق من إيماننا بالتعدد والاختلاف بوصفهما نعمتين امتن الله بهما على البشر {وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا} [الحجرات: ٤٩/١٣]، {وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ} [الروم: ٣٠/٢٢].

إننا لا ندعي الانفراد بامتلاك الحقيقة، ولا نحتكر الصواب ولا نلغي الآخر، بل نبحث عنه، ونعيد النظر في أفكارنا من خلاله ولن تنقدح بارقة الحقيقة إلا من احتكاك الأفكـــار {وَإِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلَى هُدَىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سبأ: ٣٤/٢٤].

إننا نطمح إلى كسر كل الحواجز التي تقوم بين التيارات الفكرية المتباينة، وستصـــدر قريباً أولى حلقات سلسلتنا (حوارات لقرن جديد)، متضمنة الرأي والرأي الآخر في حوار، ربما يكون ساخناً، لتدريب عقل القارئ على المناقشة والمحاورة والنقد الفاعل البناء.

تشهد الساحة الفكرية السورية غزارة في الإنتاج هل ترون أن لهذه الغـــزارة علاقـــة بتقديم جديد على المستوى النظري؟

لا أستطيع أن أؤكد أن غزارة الإنتاج في العالم العربي يصحبها ارتقاء بالكيف، فنحن لا نزال نعاني الاجترار، والتكرار، والشرح والاختصار، والمحاكاة والســـطحية، ولا يـــزال الخطاب التاريخي البديل عندنا عن الخطاب المستقبلي.

قليلة جداً الأعمال الإبداعية.. وأنا كناشر عربي، أعترف أن الفترات الزمنية التي تفصل بين الأعمال الإبداعية المميزة التي أقدمها قد تكون متباعدة، رغم حرصي علـــى الإبـــداع ودعوتي له.. وأنه قد تمضي سنوات وربما عقود، دون أن يطرح في الساحة العربيـــة فكـــر جديد مبتكر ينفع الناس، ويغير من أنماط تفكيرهم.

لا يغرنك الضجيج الذي قد يرافق بعض الإصدارات لبعض المؤلفين، فقد يكون مرتكزاً على قاعدة (خالف تعرف)، أو على نقل فكر هجين مجتث من بيئة مغايرة، لا يلبـــث أن يذوي لافتقاره إلى الجذور.

إننا في دار الفكر لا ننظر إلى الإبداع بوصفه خلقاً جديداً، بل هو توليد أفكار جديدة تنشأ من تزاوجها وتحاورها، بل واحتكاكها وتصادمها. ولا يبدأ من الصفر إثر قطيعة معرفية تلغي تراث الآباء، بل هو تواصل معرفي يبني فوق الرصيد الفكري للآباء، يصطفي ويحذف منه، ويضيف إليه.. {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِـــتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (*) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُـــمْ يَتَذَكَّرُونَ (*) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ما لَها مِنْ قَـــرارٍ} [إبراهيم: ١٤/٢٤-٢٦].

وإن الساحة الفكرية في سورية، بما تشهده من نمو في حركة النشر وتنوع مُتحاور في تيارات الفكر، مؤهلة لتؤدي دوراً مميزاً في الإبداع الهادئ الرصين، بعيداً عن مؤثرات التهييج الإعلامي والضجيج.

كيف تنظرون إلى العلاقة بين المفكر والمثقف والجمهور عامة، وفي سورية بشكل خاص؟

لا تزال العلاقة بين المثقف والجمهور في العالم العربي تعاني نوعاً من القطيعة والانفصام، وانعدام التأثير والفاعلية، ويرجع ذلك في نظري إلى عدة أسباب هي: نخبوية المثقفين، وحالة العزوف القرائي، وركود حركة الفكر، وغياب النقد، وعوز الإبداع؛ وهي أسباب متداخلة كل منها يؤثر في الآخر ويتأثر به، فالنخبوية تعني العزلة، وغياب النقد يؤدي إلى سحب الفكرة من التداول، وتثبيط الإبداع، وهذا بدوره يزيد من العزوف القرائي.

ولا بد في نظري من توفير المناخ الثقافي الملائم، لإعادة اللحمة بين المثقف والجمهور، وتنشيط حركة الفكر، وتشجيع الإبداع، وتأجيج حركة النقد، وطرح الأفكار في التداول من جديد لتؤدي دورها الفاعل في حياة الناس، ولا يكون ذلك إلا بتنشيط عادة القراءة.

وقد فطنت دار الفكر أهمية هذا المطلب، فاتخذت شعارها لعام ١٩٩٦ (بناء مجتمع قارئ أولوية لبناء مجتمع سليم)، وابتكرت أساليب جديدة، كان لها أثر فعال في مد جسور متينة بين القارئ والناشر والمؤلف.

هل ترون أن هناك أفكاراً ونظريات جديدة تطرح في سورية بشكل خاص؟

-بالرغم من كل ما تعانيه حركة الفكر العربي من ركود وجمود، فإن سورية تشهد بواكير نهضة فكرية فاعلة، على صعيد الأعمال الروائية والمسرحية والقصصية من جهة، وعلى صعيد الفكر القومي والإسلامي من جهة أخرى، كان لها صدى كبير في الخارج، مثلما كان لها أثر كبير في تحقيق الأمن والاستقرار في الداخل.

ما مصير شعارات النهضة العربية إذا اعتبرنا أن الفكر القومي هو امتداد لها؟

إن تجارب الشعوب العربية في ظل الشعارات التي كانت مطروحة منذ أربعينيات هذا القرن، قد خففت كثيراً من حالة التدابر والتقاطع بين دعاة الفكر القومي وغيرهم من التيارات الفكرية الإصلاحية، وكسرت الحواجز التي كانت شاهقة بينهم، ليبرز مفهوم

جديد للقومية العربية بوصفها جسداً روحه الإسلام، ودائرة صغيرة ضمن دائـــرة أوســـع تشكل العمق الاستراتيجي لها وهي العالم الإسلامي، ولتزول شبهة التعارض والتنافر بـــين العروبة والإسلام، ليحل محلها حقيقة التعاون والتكامل.

هل ترون أن هناك تواصلاً ثقافياً بين أقطار الوطن العربي وخاصة بين سورية والأقطار الأخرى؟

التواصل الثقافي بين أقطار العالم العربي تشله أنظمة الرقابة التي تختلف شدةً، وتتعارض منهجية واتجاهاً، وتتصف بالمزاجية والعشوائية، وتعوزها المعايير والضوابط الخصوصية، فضلاً عن المعايير المشتركة، وذلك على اختلاف فيما بينها، ما بين تحرر مطبق من قيود الرقابة في بعضها، وبين تشدد وتشنج يحجب عن القارئ العربي المحلي أكثر من نصف نتـــاج الفكـــر العربي في بعض البلدان العربية.

إنني – بعد أن تدفقت المعلومات عبر القنوات الفضائية وأجهزة الاتصال، وشـــبكات المعلومات العالمية – أرى أن أنظمة الرقابة على المطبوعات أصبحت قديمة فـــات أوانهـــا، وفقدت جدواها، وأعجزت المشرفين عليها عن تنفيذها.

ولست أدري لماذا تسمح أنظمة الرقابة بساعات بثٍّ مباشر (علـــى الهـــواء) غـــير خاضعة لأية رقابة، ثم تتردد في السماح لمطبوعاتٍ (على الهواء) تعبر الحـــدود بحريـــة إلى القارئ العربي حيث كان.

وإن كان لا بد من رقابة على (الكتاب) تضيف أزمة صعوبة انتقاله عبر الحدود، إلى أزمة العزوف القرائي التي يعانيها، وتضيِّق من ساحة انتشاره، فوق ما تضيقه وسائل الإعلام التي باتت تنافسه بلا رحمة، فلتكن الرقابة عربية ذات معايير مشتركة، تسمح بانتقال الكتاب بين البلدان العربية، متى تمت الموافقة عليه في أحدها.

هل يمكن أن نكشف عن علاقة بين المكتوب الراهن والتراث العربي؟ وكيف تنظرون إلى مثل هذه العلاقة؟

لما يُكتب الآن علاقة وثيقة بالتراث العربي؛ فالمكتوب الآن إما ملتزم بالتراث مقـــدِّس له، أو رافض له مستخف به، وكلا الموقفين من التراث خاطئ في نظري.

فالتراث، إنما هو نتاج تراكمي لفكر إنساني اجتهد في فهم النص، وأباح لنفســـه أن يختلف في هذا الفهم، فهو بذلك اجتهاد عصره لتنزيل النص على مشاكله الخاصة به، فـــلا

يستحق التقديس له، ولا الاستخفاف به، إنما يستحق الاحترام كجهد إنساني تاريخي، يستفاد منه في إطاره التاريخي، فهو في مجال الأدب تاريخ أدب، وفي مجال الفقه تاريخ فقه، وفي مجال العلوم التطبيقية تاريخ علوم..

إننا نحترم الجهود العلمية لابن سينا ونفخر بها، دون أن نجد أنفسنا ملزمين بتطبيقها، بل إن تطبيق ما فات أوانه منها بحجة التقديس له، استخفاف بها، وإنما الواجب وضعها في إطارها التاريخي، لتأخذ مكانها في مسيرة العلم الإنساني.

إن الخطاب الإسلامي اليوم خطاب تاريخي؛ في نماذجه وفي طرق استنباطه، وفي أحكامه، كذلك الخطاب العلماني، لا يتمتع بحرارة الإيمان بعقيدة الأمة المستقرة في ضميرها، ولا بالحرص على ترسيخها حين يتصدى لمعالجتها، ولا يطرح بدائل مقنعة صالحة للنماء في البيئة الثقافية للأمة، حين يتصدى لنقدها، مما كان سبباً في حالة الانفصام السائدة بين أصحاب الخطاب – من الطرفين – والمتلقين، مثلما كانت حال أهل الكهف مع الأجيال التي بعثوا فيها من مرقدهم، فأنكروها وأنكرتهم، لفقدان اللغة المشتركة بين الطرفين.

ولم يواجه الإسلام مثل هذه الحالة في تاريخه، فقد كان دائماً القادر على التواصل مع كل الثقافات؛ يتأثر بها ويؤثر فيها، بعد أن يستوعبها ويعيد إنتاجها مطبوعة بشخصيته الفذة المميزة.

ولم يعجز القرآن الكريم يوماً عن الولوج إلى النفس البشرية في كل مراحل تطورها، ولم ينسحب يوماً إلى أية زاوية من زوايا التاريخ ليركن إليها ويستريح فيها، بل كان دائماً صاحب الخطاب المؤثر في حاضر الإنسان، المثير لأشواقه وتطلعاته إلى المستقبل للإسهام في صنعه {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٤١/٥٣] إنه القرآن العظيم، كتاب السماء الخاتم، ليكون دستور البشرية في حياتها ((لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد)).

٣ – أجيال أفضل. من أجل غدٍ أفضل؟

*لعل من المسلمات لدينا:

-أن القراءة هي مفتاح التقدم، وأنها تتبوأ مرتبة الصدارة في سلَّم الأولويات، وأن مؤشر القراءة لدى كل أمة يحدد مستواها الحضاري، واتجاهها فيه صعوداً وارتقاءً، أو هبوطاً وانحداراً.. فأمة تقرأ، هي أمة ترقى.

-وأن بناء مجتمع قارئ يبدأ من الطفولة، فمن لم يقرأ، ويتعود على القراءة في صغره، يندر أن يتحول إلى قارئ جادّ في كبره.

-وأن القراءة فطرة يولد الإنسان محباً لها، شغوفاً بها، فأبواه إما ينميانها فيه بالتشجيع وحسن القدوة، أو يصرفانه عنها بالإهمال وسوء الأسوة.

-وأن الأطفال في كل أمة، هم بناة مستقبلها، الذي تطمح إلى أن يكون خيراً من حاضرها وماضيها؛ فمن لم يكن غده خيراً من يومه الحاضر وأمسه الغابر فلا خير فيه.

-وأن ارتقاء البشرية نحو الأفضل والأسمى، سنة إلهية سنها الله للإنسان الذي أتى عليه {حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً} [الإنسان: ٧٦/١]، ووهبه نعمة العقل أمانة حمَّله مسؤولية إعمالها أو إهمالها، ووعد أن يفتح له آفاق نفسه، وآفاق الكون؛ يبحث عن أسرارهما ويكتشف قوانينهما، ثم يختزن تجاربه ومعلوماته ذخراً لأبنائه وأجياله الصاعدة المسؤولة عن متابعة مسيرة حضارته وارتقائه.

كيف سيستطيع الآباء والمربون أن يصنعوا أجيالاً قادرة على ارتقاء أكثر، وعلم أغزر؟! هل يستطيع الإنسان أن يعطي أكثر مما عنده؟! وهل لفاقد الشيء أن يعطيه؟!

-إنه المناخ الملائم للإبداع؛ إن استطاع الآباء المربون توفيره، نهضت الأجيال بمسؤوليتها حياله، وزادت حصيلتها العلمية عن حصيلة الآباء، وارتفع بناء المعرفة لبنات جديدة سامقة.

-لا أحد في الدنيا يسعده تفوق الآخرين عليه مثل الأبوين؛ اللذين يغمرهما السرور كلما تحدثا أو سمعا من يتحدث عن تفوق أبنائهما.. إن هذه السعادة تستبطن الشعور بأنهما اللذان صنعا هذا التفوق، كذلك تستمر حياة الإنسان وترتقي.. ومن أجل ذلك أنكر القرآن الكريم على الأبناء أن يقولوا: {حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤/٥].

*لذلك أرى:

-أن تقويم التربية أولى وأجدى من معالجة نتائج خللها وفسادها.

-وأن توفير المناخ الملائم للإبداع هو هدف التربية؛ حرية في التعبير عن الرأي للمرسل، وحريةً في الاطلاع على الرأي للمتلقي (المستقبل)، وتخفيفاً من الوصاية والتوجيه المباشر ما أمكن، بتقديم الأفضل، وترك فرص الاستنتاج للطفل؛ لتأملاته وإعمال عقله فيه، وعدم التدخل إلا عند الحاجة القصوى لتصحيح المسار.

-إن القيم التي يستنتجها الطفل بنفسه من خلال السطور، وبكدِّه وجهده من خلال التجارب والتأملات هي أثمن ما لديه، وسيكون أحرص عليها، من القيم المفروضة عليه.

٤ – هموم الناشر العربي*[١٠]

١ – ما هي همومك كناشر عربي؟

هموم الناشر العربي هموم مشتركة، تلقي بظلالها الثقيلة على الثقافة عموماً؛ تأثيراً فيها وتأثراً بها.

فأول هذه الهموم الفقر في الإبداع: يتلقى الناشر عشرات المخطوطات؛ معظمها لا يقدم أية إضافة جديدة على الفكر السائد المعروف، إنما هو تكرار واجترار في صيغة اختصار أو شرح، دراسة أو نقد، تجميع أو إعادة ترتيب، تقليداً أو انتحال.. مما لم يَعد القارئ

-في عصر تفجير المعلومات والتطور المذهل في تقنيات الاتصال – يحتمله، بل ينصرف عنه مولياً وجهه شطر المصادر الأخرى السمعية البصرية التي تشد انتباهه بما فيها من حركة ولون، مهما كان قدر الإبداع والتجديد والالتزام العلمي والخلقي فيها قوياً أو ضعيفاً.

وما لم يتعاون الكتاب والناشرون على تنمية هذا الإبداع ومواكبة التطور فإن الزمن وسرعة التطور في حركة الأفكار سوف تتجاوزهم جميعاً، من دون أن تفطن لأهمية الكتاب ودوره الأساسي الفاعل في الحياة الثقافية والحضارية للأمم والشعوب.

[١٠] حوار صحيفة (نداء الوطن) مع المؤلف.

والهم الثاني من هموم الناشر العربي، همُّ الرقابة: فإذا استطاع أن يعثر في خضم التقليد والمحاكاة على جوهرة ثقافية فذة، كان عليه – في معظم الدول العربية – أي يأخذ موافقة من الرقابة على طباعتها مسبقاً، وأن ينتظر مدة من الزمن لا تقل عن شهرين، ولا حدود لأكثرها، فقد تمدد بضعة أشهر، أو بضع سنين، وقد تضيع في الأدراج والأقبية، وتظل يد الناشر على قلبه، مدة غياب مخطوطته، فقد تكون المخطوطة متعلقة بحدث جار؛ يموت الحدث قبل أن تصدر الموافقة على طبع الكتاب، وقد تكون مرجعاً جامعياً يتلهف الطلبة للاستعانة به في أبحاثهم.. فتلك أمور لا تدخل في حسابات الرقيب.

وإن لنا في موضوع الرقابة الملاحظات التالية:

١ً – عجز الرقابة عن توفير العدد الكافي من الرقباء، مما يدخل الإنتاج الثقافي الذي يفترض أن يكون غزيراً في عنق زجاجة.

٢ً – تعذر توفير المستوى العلمي المؤهل لتقديم أعمال المبدعين والموهوبين، مما يعرض أعمالهم لاحتمالات إساءة الفهم.

٣ً – عدم وجود المعايير الرقابية الواضحة التي تحمي الإنتاج الثقافي من القرارات المزاجية أو العشوائية.

٤ً – عدم جدوى الرقابة، وعجزها عن تطبيق قرارات المنع، نتيجة للتطور المذهل في تقنيات النسخ التصويري الآني أو المهتوف.

٥ً – عدم وجود معايير عربية مشتركة للرقابة، مما يضيق كثيراً من ساحة انتشار الكتاب العربي، الذي ما إن يفلت من يد رقيب حتى يقع في قبضة آخر.

٦ً – إضعاف دور الرقابة الذاتية لدى كل من المؤلف والناشر، اللذين يتحرران من مسؤوليتهما عن الكلمة، ليلقيا بها على عاتق الرقيب.

٧ً – ضعف الثقة بوعي القارئ العربي، وفرض الوصاية عليه، وحرمانه من حقه الطبيعي بالاطلاع على المستجدات المعرفة، مما يؤدي إلى مزيد من التخلف والجهالة

أما الهم الثالث من هموم الناشر العربي، فهو شيوع عقلية الاستباحة لحقوق الملكية الفكرية، في غياب القوانين الرادعة الخاصة بحماية حقوق المؤلف، وعدم التوقيع على الاتفاقيات الدولية المتعلقة بها في معظم البلدان العربية، مما كان له أكبر الأثر في تشجيع

قرصنة النشر، وسرقة الأفكار، ووأد الإبداع.. هل يمكن لمجتمع أن يعيش وينهض من دون إبداع؟!

ويعاني الناشر عموماً من هموم أخرى تحد من نشاطه، ومن ازدهار حركة الكتاب والثقافة، فهنالك الرسوم الباهظة المفروضة على استيراد الكتاب، أو استيراد مستلزماته، والأجور المرتفعة لنقله، وتقصير وسائل الإعلام في التعريف به، وتقديم البرامج الثقافية التي تروِّج له بديلاً هضوياً عن الثقافة الاستهلاكية المزدهرة.

كل ذلك يقتضي أن يبحث جميع المهتمين بشؤون الثقافة عن حلول ناجعة له.

٢ - ما رأيك في مسألة تعدد الناشرين دون تخصص، هل تعيق عملية النشر؟

لقد أصبح التخصص سمة العصر، وضرورة قصوى بعد تشعب العلوم والمعارف.

وفي رأيي أنه حتمي في واقع النشر، إذ إن التجربة ذاها تدفع بالناشر إلى التخصص، فما إن يمضي قليلاً في مجال النشر حتى نراه يتخصص في فروع معينة من فروع المعرفة، نبغ فيها، وشعر بجدواها.

ولا ضرر في رأيي على عملية النشر من تنوع أنشطة الناشر.

٣ — يؤخذ على الناشرين نزعتهم المادية إلى الربح، مما سيؤثر سلباً على قيمة الكتاب، فما رأيك في ذلك؟

النشر رسالة ثقافية قبل كل شيء، وعلى الناشر أن يوازن بين رسالته الثقافية ومقاصده التجارية لتحقيق المعادلة بينهما، ولن يكون ذلك صعباً على الناشر الملتزم، بل إن الناشر الملتزم يجد في كل منهما ما يدعم الآخر، فالتزامه برسالته الثقافية يجعل له جمهوراً يتلقف إنتاجه، ونجاحه التجاري يعينه على مواصلة رسالته الثقافية، ولا أرى أي تعارض بينهما، بل إن نجاح الناشر الملتزم تجارياً دليل على نجاحه في أداء رسالته الثقافية.

أما التجار غير الملتزمين من الناشرين، فقد يحققون ربحاً سريعاً، لا يلبث أن يتلاشى أمام وعي القارئ، وقدرته على التمييز بين المحسن والمسيء.

وقد كنا أيام الطلب نصنف الناشرين، مثلما نصنف المؤلفين، فلا نتعامل مع ناشر مهمل مستغل إلا عند الضرورة.

٤ — هل يمكنكم إعطاء فكرة عن الاتحاد العام للناشرين العرب، وعن التسهيلات التي يقدمها الاتحاد للناشرين والكتاب.

انبثق الاتحاد العام للناشرين العرب من لقاء لهم، تم في دمشق في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩٤، بمناسبة المعرض العاشر للكتاب العربي في مكتبة الأسد بدمشق، ثم تتابعت لقاءاتهم حتى أسفرت عن إعلان تأسيس الاتحاد في بيروت إبان معرضها لعام ١٩٩٥م، وقد انتخب مؤتمرهم التأسيسي هذا أول مجلس للاتحاد يمثل سبع دول عربية. وأنهى هذا المجلس دورته عام ١٩٩٨م، ثم انتخب الناشرون العرب في مؤتمرهم المنعقد في القاهرة في معرضها الدولي للكتاب في شهر شباط (فبراير) ١٩٩٨م المجلس الثاني للاتحاد، بعد أن ارتفع عدد الاتحادات المنضمة إليه إلى تسعة، وأصبح أعضاؤه ثمانية عشر عضواً، تنتهي دورتهم الحالية عام ٢٠٠٠م.

لقد حقق الاتحاد العام في مرحلته المنصرمة نجاحاً كبيراً، وأثبت وجوده في كل المحافل العربية والدولية المهتمة بالثقافة، كما حقق حضوراً مميزاً وتقديراً للناشر، كان يفتقر إليهما قبل وجود الاتحاد.

وإلى جانب جهود الاتحاد في ترقية صناعة النشر وإخضاعها لمعايير جودة تواكب العصر والتقدم، كان هاجسه الأكبر محاربة القرصنة، وفرض الاحترام لحقوق الملكية الفكرية، وهو يبذل جهوداً مضنية في هذا الصدد نتيجة لشيوع ثقافة الاستباحة لهذه الحقوق؛ ووجود معوقات صعبة، لن يألو جهداً في تذليلها.

كما يواصل الاتحاد العام مساعيه لتوفير امتيازات وتسهيلات خاصة للناشرين، وإعفاءات وتخفيضات للرسوم المفروضة على الكتاب، سوف يكون لها تأثيرها في صناعة النشر، وفي كفاح الكتاب في مواجهته لطوفان المعلوماتية التي أخذت تنافسه.

الفصل السابع

يداك... وفوك...

يداك أوكتا وفوك نفخ

يداك أوكتا وفوك نفخ

يداك أوكتا وفوك نفخ

يداك أوكتا وفوك نفخ*[11]

رب ضارة نافعة

أخي الناشر!

مثلما أصبحت صناعة النشر لغزاً يفتقر إلى حل، يطيب لي أن أبدأ حواري معك بلغز يتألف من مبتدأين؛ حذف خبراهما (يداك.. وفوك..)، وهو مثل عربي معروف، يضرب لتأكيد أن المشكلات التي تعترضك أنت سببها، وأن مفتاح حلها عندك، فلا تنتظر حلها من الآخرين.. هل عرفت اللغز؟!

لم يعد بوسع الناشر أن يحصل على حاجته من الورق بأبخس الأسعار لأطول الآجال، فهل سيظل بوسعه أن يغرق الأسواق بكتبه، دون أية ضمانات!؟

كان ثمن الورق يشكل ٣٥% من تكلفة الكتب، فأصبح يشكل، ٥٥% ومن يدري كم ستتصاعد هذه النسبة، ومتى ستستقر!؟ وكان تاجر الورق يقدم للناشر تسهيلات، اضطر الآن للامتناع عن تقديمها، بسبب عدم الاستقرار في أسعار الورق، مما رتب على الناشر عبئاً كبيراً عليه أن يضطلع به فور اتخاذ قرار النشر، وجعله يتردد في اتخاذ هذا القرار.

كيف نستطيع التكيّف مع هذا الواقع!؟ ومن الذي سيمتص هذا الفارق المتصاعد في أسعار الورق؟ الناشر المثقل بأعباء إنتاج الكتاب، أم الموزع الذي ينوء بعبْء تخزينه، وتكديسه، أم القارئ الذي ينتظر حجة يسوّغ بها عزوفه عن القراءة!؟

[11] مقالات للمؤلف نشرت تباعاً في (مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات) التي توقفت عن الصدور عام ١٩٩٩م.

ربَّ ضارة نافعة {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: ٢١٦/٢]، ولعل هذا الارتفاع في أسعار الورق، سيكون سبباً في تخفيف إنتاج الكتاب بلا حساب، وحذف كثير من الغثاء، والتفاهات، والتكرار، والمحاكاة (التقليد) من برنامج الناشر، وتخفيف مخزون الموزع، والحد من ظاهرة التكديس، ومن ثم إعزاز الكتاب، وإعادة الاحترام لصناعة النشر.

لقد أدركنا زمناً كان فيه لتجار الكتب في الوطن العربي أرصدة دائمة يدخرونها لدى كبار الناشرين في القاهرة، وبيروت، فإذا جاؤوا بطلباتهم، كانت قيمتها مغطاة سلفاً، وزيادة.

ثم جاء زمن كان تاجر الكتب يأتي بطلبه إلى بيروت، وجيبه عامر بآلاف الليرات اللبنانية أيام عزها، يوم أن كان (الدولار) يجثو أمامها على ركبتيه، ليحصل على ليرتين لكل دولار، يسلم ما معه للناشر ثم يسلّمه طلبه، فإذا بقي من قيمة الطلب قبل تجاوز الدفعة، وعده بتحويله فور عودته لبلده، وكانت الثقة بين الناشر والتاجر وطيدة، فلا الناشر يتأخر في الشحن، ولا التاجر يتخلف عن السداد.

سقى الله تلك الأيام التي كان الكتاب فيها موضع احترام، وكان للكلمة قيمة، وبالوعد التزام، فعزّت الكلمة، والكتاب، وعزّ الناشر، والتاجر.. ثم هان الكتاب على أصحابه، فهانوا بهوانه.

كانت زيارات الناشر للتاجر عزيزة تُنتظر، وتحترم، ثم تحوّل الناشر إلى بائع متجول، يجمع الطلبات، ويغدق في التنفيذ فيعطي المئة نسخة لمن يطلب عشراً، ويعطي ألفاً لمن يطلب مئة، فتكدَّست الكتب وفاض المخزون، وتباطأ التاجر في التسديد، ووقف الناشر أمامه كالمتسول، يطلب تسديد الحساب، فيسمع الجواب: ركود السوق، مطل المدينين، ضعف السيولة، ضخامة المخزون، خذوا كتبكم، هذه بضاعتكم ردت إليكم. يا للمهانة!!

هل سنكف عن إغراق الأسواق بلا ضمانات، حفظاً لماء الوجه، وصوناً لكرامة الكتاب، وكفاً ليد الناشر عن ذل السؤال، وعار التسول.!؟

أليس أكرم، وأجدى للناشر أن يرضى بربع رقم مبيعاته الجزافية، إذا كان هذا الربع مسدد القيمة، أو مضمون الدفع خلال مدة محددةّ..؟

لماذا أخي الناشر، لا تشترط لتسديد قيمة الفاتورة مدة، وتضرب لها أجــلاً، تعامــل التاجر بعده حسب مدى التزامه، مثلما يفعل كل أصحاب السلع الأخرى!.؟

كم من المكتبات الفخمة، المزودة بكل الوسائل الحديثة، أســهمتَ في تأسيســها في أرجاء الوطن العربي، بما أغدقت وأغرقت، ثم وقفت تستجدي حقوقك ولا من مجيب، لأن (الحاسوب) الكمبيوتر في هذه المكتبات مبرمج إعطاء الأولويــات في الــدفع لأقســاط التأسيس، ومصاريف الديكور، وللمصارف الشخصية التي ارتفعت لتتناسب مع المســتوى الرفيع لهذه المكتبات، ولاحتياطات التطوير الذي ترنو إليه. قبل أن تدفع لك حقوقك، فأنت بحمد الله مليء، قادر على الصبر بلا حدود!..؟

لا أدري عمّا وعمَّن أتحدث! المهم أنني أتحدث عن واقع مر، صنعناه بأيدينا، وبأيدينا نستطيع أن نغيره.

لعبة الحسم، والخصم، والتخفيض

ما أكثر ما يتخذ في بلادنا إجراءٌ ما لمواجهة حالة طارئة، وتزول الحالة الطارئة ويبقى الإجراء، فقد يغلق طريق لإجراء حفريات ثم تنتهي الحفريات وتطمر، ويبقى الطريق مغلقاً. وقد تقضي ظروف أمنية بوضع حراسة لحماية شخص ما، ثم ينتقل المحروس، ويبقى الحارس، وربما فرضت على المواطنين ضريبة لتغطية مشروع حيوي عام، ويقوم المشروع وتنقضــي حاجته إلى المال، وتبقى الضريبة.

والأمر نفسه يحدث في عالم النشر، فالحسم الذي جرت العادة على منحه للموزع لم يكن يزيد وسطياً عن ٣٠% من السعر المقرر لبيع الكتاب للقارئ. وهذا الحسم ما يــزال يدور حول هذا المعدل في كل عواصم النشر العربية، فهو يتراوح في كل من مصر وسورية بين ٢٠ و٤٠% حسب طبيعة الكتاب وحجم الطلب وطريقة تسديد القيمة. وكان كذلك في لبنان، قبل أن يختل التوازن بين العملة اللبنانية والعملات العربية الأخرى.. وعندما ارتفع سعر الليرة اللبنانية حتى أصبحت أغلى العملات العربية، لجأ بعض الناشرين اللبنــانيين إلى رفع نسبة الحسم، وتسابقوا في ذلك حتى بلغوا به ٥٠ و٦٠ و٧٠% في محاولــة لإغــراء الموزعين العرب بالإقبال على الكتاب المنشور في لبنان.

لم يكن هذا الحسم، سوى وهم وخادع، لا يكلف الناشر شيئاً، إذ هو يحدد سعر بيع الكتاب للقارئ بما يتناسب مع الحسم الذي قرر منحه، فهو يحدد سلفاً المبلغ الصافي الـــذي يجب أن يعود إليه من ثمن الكتاب، فإذا كان هذا المبلغ الصافي ٦٠ل. فإنه ســـوف يســـعر الكتاب للقارئ:

بـــ ٨٥ل. إذا حسم ٣٠%

و ١١٠ل. إذا حسم ٤٠%

و ١٢٠ل. إذا حسم ٥٠%

و١٥٠ل. إذا حسم ٦٠%

هذه الزيادة الوهمية في نسبة الحسم، التي ظهرت في لبنان، في ظروف استثنائية، أعقبت في سوق الكتاب بلبلة وارتباكاً، حيث بدأت مؤسسات التوزيع وخاصة الرسمية، تطالـــب الناشرين بزيادة الحسم أسوة بالحسم اللبناني، وأدى ذلك إلى لجوء الناشـــرين إلى إصـــدار قوائمهم مزدوجة، واحدة بالعملة المحلية خاضعة للحسم المحلي، وأخرى بعملة أجنبية خاضعة لحسم التصدير

ثم — بسبب الحرب الأهلية في لبنان — انهارت العملة اللبنانية، التي كان غلاؤها سبباً في رفع الحسم، لكن الحسم الوهمي المرتفع ظل كما هو يثير الفوضى ويحدث الخلل.

فهل لنا أن نعود إلى الحسم العادي المعقول، في الداخل والخارج، لكي نساعد علـــى استقرار سوق الكتاب؟!

أود ختاماً أن أنوه ببعض الملاحظات:

١ — إن بعض دور النشر العريقة والجادة في لبنان احتفظت بحسمها العادي، لم تغيره في أي ظرف من الظروف، فلم يؤثر ذلك في مبيعاتها، مما يوجب كل التقدير والاحترام لهـــذا الدور.

٢ — يعتمد الناشرون في الجزائر أسلوباً آخر في تحديد سعر الكتاب، حيث يحدد الناشـــر السعر الصافي للموزع، ثم يضيف الموزع إليه نسبة ٢٠% لصاحب المكتبة، ويضيف صاحب المكتبة عليه بدوره ٣٠% للقارئ، وهو أسلوب معكوس يؤدي إلى النتيجة ذاتهـــا، وهـــي حسم حوالي ٣٥% من السعر النهائي للقارئ يقتسمه كل من الموزع وصاحب المكتبة.

٣ – وتبقى مسألة لغوية تتعلق بالمصطلح، فقد شاع استخدام كلمة (خصم) للدلالة على التخفيض الممنوح، وأكره هذه الكلمة لكونها مشتقة من (الخصومة) وهي النزاع، وربما كانت كلمة (تخفيض) هي الأكثر دلالة على المعنى المقصود وهو (الحطيطة)، أما إذا كان لابد من الخصم فكلمة (الحسم) ومعناها القطع أقرب للمراد.

وأخيراً.. في إطار التعاون المنشود بين الناشرين، الذي بدأت بواكيره في ظل الاتحاد العام للناشرين العرب، آن لنا أن تخضع جميع أمورنا للدراسة والحوار، حتى نصل إلى صيغ مشتركة، تشكل قواعد وتقاليد راسخة لصناعة النشر.

نجار... بابه مخلوع

أخي القارئ الناشر!!

ما أظن إلا أنك، من عنواني قد بدأت تفهمني..

إنني أرنو إلى أن تتعودَ البحث عن أسباب الخلل في ذواتنا.. في ممارساتنا.. في أعمال نفوسنا، قبل أن نلقي بها على عاتق الآخرين؛ هرباً من المسؤولية، وتبرئة للذات..

أنا أؤمن بالذات، ونقد الذات، واتهام الذات..

أنا المسؤول عن إخفاقي، وأنا القادر على تصحيحه..

أنا المسؤول عن تحصين ذاتي في مواجهة أي اختراق {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ٣/١٦٥]، فإن أنا برأ نفسي وألقيت اللوم على الشيطان، فإن الشيطان سوف يقول لأمثالي {وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} [إبراهيم: ٢٢/١٤] أما إذا ارتديت جبة الوعظ، وأمرتُ الناس بالتسابق إلى فعل الخيرات، و لم أشاركهم فيه فإن الله تعالى سيقول لي ولأمثالي من الوعاظ: {أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٢/٤٤].

يقولون إن الأمثال تختزن خيرات الأجيال، وكثيراً ما ينحو المثل نحو الإغراب والإمتاع، ليكون أبلغ في توضيح الفكرة والتأثير بها في السامع.. من ذلك قولهم: (نجار، بابه مخلوع).

يضربونه مثلاً لكل امرئ يصنع الشيء للآخرين، ولا يصنعه لنفسه؛ إما انشغالاً بهم عن نفسه، وإما – وهذا هو مغزى المثل – لسوء صنعته وانعدام خبرته، فلو كان خبيراً لأصلح بابه، وتخلُّع بابه نموذج سيّئ لصنعته؛ لن يشجع الناسَ على تكليفه بإصلاح أبوابهم.

ومن هذا القبيل قولهم: (الإسكافي حافي، والحايك عريان).

وقد بدؤوا ينحتون كلاماً – ربما يستقر بمرور الزمن في مجمعِ الأمثال – ناشر أمي، وناشرة أمية، وناشر لا يقرأ.. وأحياناً يعممون فيقولون: هذا بلد ينشر ولا يقرأ؛ يعنون بذلك أنه ينتج الكتاب للتصدير لا للاستهلاك، كما يقولون: هذا مجتمع لا يقرأ.. وهذه أمة لا تقرأ.

ليس غرضي هنا أن أنوه بأهمية القراءة بوصفها سمة التحضر وعلامة الرقي ومفتاح النهضة وسر النجاح.. فلهذا الموضوع مجال آخر.

ما أريده، أن أهمس في آذان الناشرين، وأنا واحد منهم: إن من مقتضيات صناعة النشر التي نمارسها، أن نقرأ، وأن نكون على دراية وعلم بما ننشر.

ليس من اللائق أن يُسأل الناشر: تحت أي موضوع يندرج كتابه؟ فيعيا بالجواب أو يخطئه، فيقول: هو في الأدب ويكون في الفلسفة، أو هو في علوم الدين ويكون في علوم اللغة.

ليس من اللائق أن يكون الناشر في مجلس، يتطارح الناس فيه أفكاراً هو ناشرها، ولا يدري. أو يسألونه عن مشكلات في بعض إصداراته انتبهوا إليها، ولم ينتبه.

أيعفيه من المسؤولية أن يعتذر بجهله، أو انشغاله؟ وما دور الناشر إذن؛ إن لم يكم ملماً – ولو بإجمال – بما ينشر!؟

أعترف لكم، أنني – كناشر – كثيراً ما تعرضت لمواقف محرجة كتلك التي ذكرت، وكنت أتحمل مسؤوليتها كاملة، وكانت تحفزني لمزيد من القراءة.

من المؤكد أن الناشر لن يستطيع قراءة كل ما ينشر، ولا أن يكون ملماً بكل اختصاص. يكفيه أن يعرف موضوع الكتاب، وتلقاءَ مَنْ يتوجه؟ وما هي جوانب الإبداع فيه؟ وهل يتضمن نشوزاً علمياً أو اجتماعياً أو سياسياً من المتعارف عليه؟ حتى يكون على بينة من أمره، ويتحمل مسؤولية نشره.. ويمكنه أن يستعين على ذلك بتقويم طوعي أو مأجور ممن يثق بهم من أهل الاختصاص.

لقد أدركت منهم، من كان لا ينام حتى يستوفي – يومه – ساعتين من القراءة؛ يستطلع من خلالها طبقات المؤلفين، تصنيفات العلوم؛ مخطوطاتها ومطبوعاتها، ومسيرة الثقافة؛ تراثها وحاجاتها المعاصرة، وكان له في كل مجال ثقافي بارع، وبكل موضوع إلمام، وكان مجلسه يأخذ بالألباب.

وأدركتُ منهم علماء محققين، يراجعون المؤلفين فيما يكتبون، ويوجهونهم فيما يبدعون، وكانت مكتباتهم ملتقى الأدباء والمفكرين، وكانوا موضع كل تقدير واحترام.

قد يؤجر المرء رغم أنفه، بمعنى أن يقوم بالأمر تلقائياً بحكم عمله دونما قصد ذاتي إليه، لكنه ينفع الناس فيؤجر عليه.

فعسى أن يكون في إقبال الناشر على قراءة بعض ما ينشره – بقصد تنقيحه وتصويبه وتنقيته من الشوائب والأخطاء الإملائية واللغوية (التي يسمونها ظلماً: مطبعية!)، ويهدف تقديم إصداراته للقارئ، على أفضل وجه يوفر له الاحترام والثقة – بعض الأجر العفوي الذي يأتيه بلا قصد ولا نصب (بفتح الصاد!!)

أخطاء!! يزعمون أنها مطبعية

يقشعر جلدي، وأكاد أتميز من الغيظ، كلما استمعت إلى خطيب، يرغي ويزبد، ويأمر وينهي؛ لا يقيم لسانه على قاعدة، فهو يخفض ويرفع، وينصب ويجزم، محرفاً الكلم عن مواضعه، دون رادعٍ من نقد أو وازع من وجدان.

وأتساءل! لو أن هذا الذي عُرف في لحن القول، كان ينتمي إلى أمة تحترم لغتها، وتغار على تراثها، أكان ينجو من عقابها!؟

أما عندنا؛ فلا شيء يبعث على القلق، ولا خطأ يستحق اللوم، فنحن بحمد الله من ذوي الألباب الذين يفهمون من الإشارة، ويردون الكلم إلى مواضعه من السياق، تشجيعاً للموهوبين منا على التعبير عن مكونات أفكارهم بأية لغة يريدون، فإنما همنا المعاني، ولا نبالي بالمباني.. فليقل الموهوبون ما يشاؤون، ولنفهم ما نشاء، وعلى اللغة وقواعدها وآدابها السلام.

لكنني أزداد قشعريرة وتقززاً، وأستشيط غضباً، كلما أقبلت – مشغوفاً – على قراءة كتاب، فتصدني مقدمته عن الولوج إلى مضامينه، لكثرة ما أرى فيها من الأخطاء التي يسمونها – ظلماً – خطأ مطبعياً وما هي بمطبعية، وأعزف عن القراءة أخذاً بالمثل: (

المكتوب واضح من عنوانه)، وأشتم الذي كان له السبب، لأن مَثلَه كمثل من يصد عن سبيل الله، بتحريفه الكلم عن مواضعه.

وأكثر ما يصدمك في (كتاب اليوم)؛ الفوضى، وعدم التزام منهج موحد في القواعد الإملائية واللغوية، وفي علامات الترقيم.

أمامي الآن كتاب للأطفال يشيد المقدم له باهتمام واضعيه بتكوين مهارات لغوية عند أطفال الروضة، وتركيزهم على قضايا الضبط، وعدم الخلط بين همزتي القطع والوصل، والهاء والتاء المربوطة، وعدم تسكين أواخر الكلمات بلا مسوِّغ، مما يؤكد وعيهم اللغوي.. وأطرب لهذا الوعي اللغوي، وافتح الصفحة التالية للتقديم لأقرأ فيها: ((صِلْ الصورة)) و ((على أماكنْ الأشياء)) و ((أُذكُرْ)) و ((أُرْسُمْ)). و ((إنسَخْ)) و ((إقرَأ)).

وأرى الأخطاء نفسها في أطلسٍ للنحو، موضوعٍ لتبسيط قواعد اللغة للكبار.

وأنهض من مكتبتي، فآخذ حفنة من الكتب، عشوائياً، دون اختيار، وأفتح على مقدمتها – وأنا مغرم بالمقدمات، لدلالتها على ما وراءها – لأجد العجب العجاب:

ففي الكتاب الأول: تطالعني كلمة (الأسلوب) لترد على سطر واحد؛ مرة بهمزة فوقها، ومرة بلا همزة. ويكاد لا يخلو سطر واحد من خطأٍ أو اثنين.

وفي الثاني، أرى الناشر قد أعفى نفسه من عبء الهمزة فأهملها، سواءٌ أكانت همزة قطع أم وصل أم مد، وكتب: ((احد اكثر اجهزة الاستخبارات اثارا)) يريد: (أحد أكثر أجهزة الاستخبارات آثاراً)، فاستراح ولم يرح.

وفي كتاب إسلامي، تفاجئني مقدمته بالهفوات التالية التي وقعت سهواً في صفحة واحدة: خمسة عشر قروناً (صوابها قرناً)، حلاً لقضايا متنوعة (يقصد قضاياه)، إلى الأمة الإسلام (يريد الإسلامية)، ستة رسول الله (بدلاً من سنة)، وبينت سيماها (سماها)، وأبواه يهددانه (يهودانه..) ستة أخطاء في صفحة واحدة، من المقدمة، فما عسى أن يكون في الداخل؟!

وأفتح كتاباً رابعاً لأقرأ به: العد التنازلى (بألف مقصورة)، المسئول (على نبرة)، قرأوا (على ألف)، إزيك وحشتني خالص (بالدارجة)، فأدرك أن الكتاب مطبوع في مصر على القواعد الإملائية المصرية، مع إضافة بعض (الدارج) لتخفيف الظل.

هل أتناول حفنة أخرى لأقرأ لك مقدماتها؟!

إن في ذاكرتي الكثير من نماذج الأخطاء الجغرافية والتاريخية والعلمية، الشِّعر المكسور، والأسماء المقلوبة، والحذف والإضافة، والتقديم والتأخير، والتحريف والتصحيف.. لكنني أظن أن ما قدمته كاف لتسويغ انزعاجي وتقززي، ولدفعك إلى مشاطرتي الخوف والحرقة على مستقبل لغتنا العربية، التي أوصل القرآن العظيم حرفها العربي إلى أقاصي الشعوب والبلدان، ثم انحسرت بسبب غفلتنا، حتى بدأنا نسهم في إهمالها وتشويهها في عقر دارنا.

أي وعي لغوي؟! وأية غيرة؟! تلك التي تنطق بها كتبنا ومطبوعاتنا؟! وهل نجد هذه النسبة من الأخطاء في أي كتاب أجنبي نقرؤه؟!

إن لغة كل أمة وعاءٌ لثقافتها، وكل عطب يصيب لغتها سيلحق الضرر حتماً بثقافتها، لذلك كان من الضروري معالجة هذا الضياع اللغوي لدينا قبل أن يستفحل خطره.

وأنا – كما عودتكم من العنوان الذي أكتب تحته – يعجبني من المرء أن يتحدث بلغة الواجب، وأن يشعر بالمسؤولية الذاتية، فينبري لإصلاح الخلل دون أن ينتظر الآخرين.

ومن هذا المنطلق أقول للناشر: أنت المسؤول عن هذه الفوضى اللغوية التي تفيض بها كتبنا، لا نلق اللوم على مؤلف ولا على مطبعة. إن دورك لا ينحصر في الوساطة بين المؤلف والمطبعة، فمثل هذا الدور لا فائدة منه، ولا حاجة بالمجتمع إليه، ويمكن أن يسند إلى أي بقال، دون نظر إلى ما يتمتع به من مؤهلات.

أنت الصانع الحقيقي للكلمة، وأنت المسؤول عن سلامتها وصيانتها من العبث.

لم لا يكون لك – مهما صغر حجم مؤسستك – جهاز للتقويم العلمي، وآخر للتحرير اللغوي، تنقيحاً وتصحيحاً ومراجعة، متفرغاً أو غير متفرغ؟!

لم لا يكون لك منهج خاص وشخصية متميزة، تطبع بهما منشوراتك، وتتركان آثارهما في كتبك؟

أنا واثق من أنك – حين تنهض بهذا الواجب، وتتصدى بجدارة لحمل مسؤولية الكلمة – سوف تسهم في الارتقاء بلغتك إلى المستوى اللائق، وستكون أسوة لأطراف أخرى تقتدي بك خجلاً، إن لم تنافسك أداءً لواجب مشترك.

أنا واثق من أن الناشرين – من خلال تضامنهم المهني في اتحادهم العام – يمكن أن يقوموا من أجل صيانة لغتهم – بدور عجزت عنه المجامع، كما يمكن أن يقوموا – من أجل توحيد أمتهم – بدور عجزت عنه الجامعات، علمية كانت أو سياسية.

فهل آن لنا أن ندرك الدور الذي ينتظرنا؟! وأن نتأهب لأداء واجباتنا، كي تتبوأ أمتنا مكاناً لها في عصر المعلومات؟!

صناعة النشر: تجارة؟! رسالة؟!

في بلادنا، يعاب على الناشر؛ أنه يستهدف في صناعته الاستثمار التجاري، وتحقيق الربح المادي.

وألاحظ في هذا المفهوم للناشر:

١ً – تبرئته المؤسسات العامة من هذا العيب، إذ هي بطبيعتها إنما تسعى لنشر الثقافة بعيداً عن مفهوم الاستثمار.

٢ً – افتراض وترسيخ فكرة التناقض بين التجارة والرسالة.

وأتساءل أولاً:

لو حذف الناشر (التاجر) من حياة المجتمع، فمن ذا الذي سيسد مسده في تأمين الحاجات الثقافية لهذا المجتمع؟!

من الذي سينشر المعاجم والموسوعات ودوائر المعارف، ويترجم ويحقق وينشر الآلاف من الكتب؟!

وإذا استطاعت دور النشر العامة – مشكورة – أن تلبي بعض الحاجات العلمية لفئات من المتخصصين، أو أن تسهم في رفد الثقافة العامة بنتاج بعض المبدعين، أو أن تضطلع بتشجيع بعض الكتاب الناشئين، فهل استطاعت أن تلبي كل الحاجات الثقافية للمجتمع؟!

وهل هي مبرأة من كل عيب قد يبتلي به الضعفُ البشري أية مؤسسة عامة أو خاصة؟!

الذي نعرفه أن بعض هذه المؤسسات قد تحولت إلى مقبرة للمواهب ومذبح للإبداع بذريعة الدعم للكتاب، فلا المؤلف ينال مكافأته المجزية عما ألف، ولا المجتمع يستطيع اختراق الحصر فيتناول الكتاب بالنقد والتحليل اللذين بهما تنمو الحياة الفكرية وتتطور.

وبعض هذه المؤسسات مارس حرمان القارئ من أبسط حقوقه في حرية القراءة وشمولية الاطلاع، إذ أقام نفسه وصياً عليه؛ إما بذريعة حمايته من الرأي الآخر، أو بحكم علاقات خاصة يشوبها الهدف المادي المعاب.

ثم إن الدعم المالي الذي تتلقاه المؤسسات العامة، خيريةً كانت أم حكومية، كثيراً ما يؤدي بها إلى التراخي في تحقيق مردودٍ مادي ينعكس على المردود المعنوي، بحكم فقدانها للحوافز الفردية، والطموح الشخصي الفطري في حياة الإنسان.

وأستمر في التساؤل ثانياً:

لماذا يعاب الهدف التجاري على الناشر، الذي يقدم للناس غذاءهم الفكري وزادهم العلمي وحاجاتهم الثقافية، التي لا يمكن لهم بدونها أن يدخلوا التاريخ ويرتقوا في معارج الحضارة، ولا يعاب ذلك على التاجر الذي يمدهم بأقواتهم، ويوفر لهم المواد التي يحتاجون إليها في تغذية أجسادهم، أو الطبيب الذي يعالج أمراضهم، أو الصيدلي الذي يزودهم بأدويتها، أو الفنان الذي يقدم لهم برامج إمتاعهم ولهوهم وترفيههم؟!

ما أعرفه من سلوك الناس أنهم يدفعون ثمن ما يسد رمقهم، أو يدفع عنهم غائلة المرض، أو حتى ما يسليهم ويزيل عنهم كآبة الحياة، شكراً وتقديراً لمن قدم ذلك لهم. أم أن الكتاب لا يرقى عندنا إلى مستوى الحاجة.. وفي مثل هذه الحالة من هبوط قيمة الكتاب في حياتنا لن يجدينا نفعاً أن يقدَّم الكتاب لنا ولو مجاناً، لأننا لن نقرأه، ولن نشعر بأي حاجة إليه.

إن مجال النشر أبطأ المجالات الاقتصادية دوراناً لرأس المال، من ثَمَّ فإن الاستثمار في مجال النشر لا يعد ناجحاً، ولا يغري الذين يملكون نزعات تجارية بحتة بتوظيف أموالهم فيه.

وأتساءل ثالثاً:

هل يتعارض الهدف التجاري للناشر، مع الرسالة التي يحملها في نشر الثقافة، والارتقاء بالمستوى الفكري للقارئ فلا يتلقيان لما بينهما من تباين وتضاد؟!

ألا يمكن أن يكونا متعاونين متكاملين، فيكون النجاح التجاري للناشر، نجاحاً للرسالة التي يحملها؟! وتكون المعايير التي يجب أن تحل في الكفة الثانية للميزان هي مقدار الالتزام برسالة النشر، مقابل الهدف التجاري الذي يحل في الكفة الأولى؟!

إن هذا يعتمد على وعي القارئ في مجتمع قارئ، فهو وحده القادر على استخدام معايير الرسالة والتجارة في موازين العلم والمعرفة، وهو وحده القادر على أن يقدر صناعة

الكتاب، إبداعاً وإخراجاً، حق قدرها، فيعلي شأنها، ويرفع قيمتها على قدر ما تلتزم به من صدق في حمل الرسالة والتزام بأداء الأمانة.

فالله الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم {الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥/٥٧] أمر أن {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ} [الرحمن: ٩/٥٥] {وَلا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ} [الأعراف: ٨٥/٧].

ولكن قبل أن أسترسل أخي الناشر! في الدفاع عن هدفك التجاري النبيل، هل لي أن أخلو بك هنيهة، لأهمس في أذنك همسات (بيني وبينك)؟:

-ماذا تتوقع من مجتمع يتلقى من بعضنا الغثاثة، والعناوين الفاضحة، والموضوعات المثيرة، واجترار الأفكار، وتكرار الكتب، والتلاعب بالأسعار.. ماذا نتوقع من هذا المجتمع أن يقول عن هدفنا التجاري النبيل؟!

-ماذا نريد من إدارة معرض للكتاب؛ يأتيها زائر بقائمة أسعار لبعض الناشرين تختلف عن القائمة المقدمة منه للمعرض، أو بكتاب اشتراه من أحد الأجنحة بخمسين، ووجده نفسه بكل مواصفاته معروضاً في جناح آخر بثلاثين، وفي السوق خارج المعرض بعشرين؟!

كيف ستنظر الإدارة إلى رسالتنا الشريفة في ضوء هذه الممارسات؟!

-ما عساه يفعل زميل لنا يعمد بعضنا إلى أعز كتاب لديه فيصوره ويوزعه هنا وهناك متذرعاً بفاتورةٍ اهترأت من كثرة الاستخدام.

-كيف سينظر إلينا قارئ يتوقف في كل صفحة من بعض كتبنا ليصحح أخطاءً لا نلقي لها بالاً، ولا ندخلها في برامج هدفنا التجاري، ونعتذر عنها بأنها لا تخفى على القارئ اللبيب؟!

-كيف سنبدو في نظر مؤلف، يتسوَّل من بعضنا حقوقه، فلا يعود من سؤالاته العديدة إلا بالكفاف والشكوى؟

لن أزيدك همساً، فنحن ولا شك أدرى بما تفوح به رائحة أكفنا، فلنشمها، ولتضمخها بالطيب، ارتقاءً بالمهنة، وصيانة لشرفها من جهة، ولكي نطمئن إلى نظافة كسبنا، وأننا لا نأكل السحت والغش، إنما نكسب برسالتنا الثقافية مالاً حلالاً طيباً مباركاً فيه.

ولن يتحقق لنا ذلك إلا بالتضامن لإرساء تقاليد لصناعة الكتاب، يؤخذ بموجبها على يد المسيء، حتى لا يكون حجة على الناشر الملتزم الذي تتحد رسالته التجارية مع رسالته الثقافية، فيكون نجاحه التجاري نجاحاً لها.

في غياب الإبداع

غاب الإبداع.. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون؛ قالوا: إن الناس قد عزفوا عن القراءة.. وقال الناس: أين الكتاب؟ وأين المبدع؟.. وقال المؤلف: أكلني الناشر.. وهرب الناشر من المؤلفين الأحياء وإلحاحهم، إلى المؤلفين الأموات يجتر تراثهم، فلاحقه المحققون بدعوى الوراثة، وأن حقوق الأسلاف آلت إليهم، فظهرت لدى الناشر بدعة لجان الدراسات والتحقيق يستر بها عبثه، وينافس زملاءه..

غاب الإبداع، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون؛ مؤلفين، وناشرين، وشعراء وخطباء وقراء.. يتهم بعضهم بعضاً؛ في تتريه اللذات، وتبرئة لها، وإلقاء اللوم على الآخر.. فهانت الكلمة، وهان صناعها وانفض عنهم متلقوها.

استمعت مرة إلى خطيب جمعةٍ، في مسجد جامعٍ، يشكو قلة المصلين، وتباطؤهم في الحضور إليه، وتثاؤبهم أثناء الاستماع له، ويروي لهم حديث البقرة فالشاة فالدجاجة فالبيضة، جزاء متناقصاً للقادمين إلى المسجد كلٌّ بحسب تبكيره أو تأخره، وحرمان المتأخر حتى يصعد الخطيب المنبر من الثواب، ثم دفعني الفضول لملاحظة أثر هذه الخطبة المؤثرة في الجمهور، فألقيت هذا الجمهور يمعن في الانفضاض عن خطيبه، كلما أمعن خطيبه في الشكوى، وإلقاء اللوم على الآخرين.

قلت في نفسي: يا سبحان الله!! هلاّ بحث هذا الخطيب عن العلة في نفسه، وتساءل عن السبب الذي عنده، قبل أن يلوم جمهوره؟!

وتذكرتُ أن بعض المساجد في بلدي تغص بالمصلين، يتوافدون إليها في ساعات مبكرة، كي يجد الواحد منهم له مكاناً مناسباً، وينتظر صعود الخطيب إلى المنبر بكل تلهف، ثم يصغي إليه بكل تحفز وانتباه، فإذا خرج خرج بما يعادل البقرة أو الشاة أو الدجاجة أو البيضة فكراً وأخلاقاً ومفاهيم، على قدر تنبهه ووعيه واستيعابه.

تُرى ما الذي غير من سلوك الجمهور مع الخطيبَين؟!

إنه الإبداع، والشعور بمسؤولية الكلمة، والاحترام للمستمع والمتلقي..

قال شاعر من الشعراء لمصغٍ إليه لم يتجاوب مع انفعالاته وهو ينشد شعره: لِمَ لا تفهم ما أقول؟

فأجابه لِمَ لا تقول ما يُفهم؟!

ومثل ذلك، كثيراً ما كان يحدث في تراثنا الأدبي، ومرده إلى الإبداع في الفكرة والأسلوب والعرض.

أسوق هذا الحديث، وأنا أقرأ مقالة صحفية لمؤلف يشكو ناشره، الذي غاب عنه ثلاث سنوات، ثم فوجئ عند عودته بكشف الناشر يقدم له حقوقه عن سبع نسخ بيعت من كتابيه خلال هذه الفترة، فإذا به يستنفر كل طاقاته الأدبية، ومخزونه الثقافي، وقدراته الإبداعية، في شتم هذا الناشر، والطعن في دينه وأمانته والتشكيك في ذمته ومخافته من ربه..

وأستغرب كثيراً هذا الموقف الانفعالي المتسم بكثير من السطحية والقصور، إن لم أقل بكثير من الغرور والتجني.

فلماذا يكون الناشر – وحده – مسؤولاً عن عدم رواج كتابك، عزيـــزي المؤلـــف المصون، المتره عن الخطأ، المعصوم من الزلل؟

أنا لا أنفي وجود ناشر مسيء، مثل إمكان وجود تاجر مسيء ومهنـــدس مســـيء ومؤلف مسيء.

لكن ما أستغربه أن تبلغ بنا السطحية – إن لم أقل الأنانية – أن لا نرى للمشكلة غير سبب واحد هو الآخر؟ حتى إذا استحكم بنا الوهم، واستبد بنا قصر النظر، وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وجهنا إليه الاتهام دون بينة ولا دليل، وأصدرنا عليه أحكامنا دون حق ولا برهان.

فأين قانون الاحتمالات؟ ولو أن كل قاضٍ أخذ بما يزينه له المدعي من زخرف القول عن الظلم الذي حاق به، والحقوق التي ضاعت عليه، والأضرار التي لحقته، دون تبين وجهة نظر الطرف الآخر، وتقليب الأمر على كل الوجوه، لضاعت حقوق الناس، وأكلوا أموالهم بينهم بالباطل {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [المؤمنون: ٢٣/ ٧١].

وقصة الأعور الذي جاء إلى القاضي يبكي عينه، ويطلب القصـــاص مـــن الجـــاني؟ فيستدعي الجاني، فإذا به قد فقد عينيه في معركته مع الأعور.. معروفة.

عزيزي المؤلف!!

هلا تساءلت عن سبب بوار كتابك، وعودته إلى مخزون الناشر، بعد أن ملَّت رفوف المكتبات من عرضه، لكثرة ما أشاح روادها وجوههم عنه؟!

ألا يحتمل أن يكون (العزوف القرائي) الذي ينتاب العالم العربي اليـــوم وراء هـــذا الكساد؟!

ألا يحتمل أن يكون (عنوانك) الذي اخترته لكتابك صارفاً عنه إلى ما هو أكثر ألقاً ولفتاً للانتباه؟!

ألا يمكن أن يكون (موضوعك) الذي تناولته، قد تحوَّلت عنه تموجات القـــراءة إلى مواضيع أخرى؟!

ألا يمكن أن يكون (أسلوبك) منفراً، أو صعباً، أو عسيراً على الفهم؟!

ألا يجوز أن تكون (أفكارك) مكرورة، مجترة، بالية، قد ملَّهــا النــاس، وتجاوزهــا الزمن؟!

تقول لي: لماذا قبل الناشر أن ينشرها إذن؟!

وأقول لك: أنت على حق. على الناشر أن يحسن الاختيار، وأن يكون لديه جهــاز للتقويم، ودراسة الجدوى العلمية والاقتصادية، وألا يتقبل كل ما يرد إليه من دون معــايير وأسس واضحة، يقبل ويرفض في ضوئها، وألا يغتر بالأسماء الطنانة؛ التي قد تســتريح إلى شهرتها، فتتهاون في إبداعها، وألا يجامل في معاييره صديقاً فإنه سوف يغــامر، بمجاملتــه وخجله وحيائه، بماله وسمعته وبأصدقائه.

ما أخشاه، عزيزي المؤلف، أن تكون قد أوهمتَ صديقك الناشر بأن قراءك ينتظمون في صفوف انتظاراً لكتابك، أو أن تكون قد خدعته بأن النصوص التي اخترتها من بطــون الكتب، ثم سلكتها في كتاب واحد، هي من صميم مناهج الطلبة، سيقبلون عليها بشغف لما تخفف عنهم من جهد وتعب، فلا عذر لكما بعد ذلك، وعليكما أن تتحملا وزر ما أقدمتما عليه بمحض اختياركما. فلا تتلاوما، ولا يغمز بعضكما بعضاً، ولا يُلق باتهاماته جزافاً، ولا يبرئُ نفسه، ويتوجه بالنقد للآخرين {وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: ١٢/٥٣].

ما الذي ترومه من الناشر كي يستنقذ دينه وأمانته من براثن اتهاماتك؟

هل يرضيك أن يبعث بمخزونه من كتابك إلى مصنع الكرتون، فيصنع منه علباً ينتفــع بها عباد الله، ويرتاح من عبء تخزينه، ومسؤوليته تجاهك؛ وعوضه على الله؟!

أم يتجاهل مخزونه، ويكذب على نفسه وعليك، ويدفع لك مستحقات عن مبيعــات وهمية لم تستحق؟! وهل – إن فعل ذلك – سينجو من مطالبات مقبلة عن مبيعات وهميــة بنفس الوتيرة؟! ألا ترى في ذلك ابتزازاً مقززاً باسم الثقافة؟!

أليس أجدى عليه أن يتخلص من ورطته معك بأي ثمن، ويلتفت إلى أصــدقائه مــن المؤلفين والمبدعين، ويدفع لهم حقوقهم من عوائد المبيع الفعلية الوفيرة من كتبهم، عن نفس راضية، تبادلهم الثقة والمحبة والتقدير؟!

وكلمة أخيرة: نحن جميعاً ناشرين ومؤلفين في خندق واحد؛ ضد التخلف الثقافي، والعزوف القرائي وغياب الإبداع؛ ينبغي أن يشد بعضنا أزر بعض، وأن نعمد إلى التعاون والتكامل، بدل التناحر والتشاجر، وأن يبحث كل منا عن جذور المشكلة في نفسه، قبل أن يبحث عنها لدى الآخرين.

كشف الحساب يوضح للمؤلف مدى قبوله لدى القراء؛ ويصيح به:

{اقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً} [الإسراء: ١٧/١٤].

الناشر هو المتضرر الأول بما أنفق وخزن.

والثقة هي الضمان للعلاقة بين المؤلف والناشر.

وعودة الإبداع إلى عالم (الكلمة) هي الكفيلة بعودة الثقة والاحترام المتبادل بين صنَّاعها.

ضد الجديد

استسلم رفيقي إلى النوم، بعد أن تناولنا بعض ما قُدم لنا على متن الطائرة، التي تقلنا إلى معرض دولي للكتاب، وألقيتني في جو هادئ نقي، لا يلوثه غير دخينة أشعلها مسافر يجلس جانب النافذة تحت إشارة لمنع التدخين، لم يأبه لها، ولا لتعليمات قائد الطائرة بمنع التدخين طيلة الرحلة، حتى أسرعت المضيفة إليه تطلب منه بصرامة إطفاءها، فاستجاب.

وفاجأت نفسي، وأنا أمتطي السحاب، سابحاً في بحر لجي متلاطم من الخواطر. سارعت إلى مذكرتي لأدون فيها هذه الخواطر قبل أن تفلت مني، وقد علمتني التجارب أن الخواطر مثل الأسماك تمر مسرعة، ولن تعود إليك إذا لم تبادر إلى احتوائها في شِباكك، وشِباكُ الخواطر إنما هي القرطاس، وأدواتها القلم.

وكان مما استقر في شبكتي من عشرات الخاطرات التي كانت تناوشني ولم تتمكن من الإفلات من قلمي، هذه الخاطرات المتباينات:

*طوابير من المثقفين، تصطف وتزدحم في جناحي في المعرض باحثة عن الجديد من الكتب الصادرة حديثاً، تحمل إبداعاً أدبياً، أو ابتكاراً علمياً، أو نقداً فكرياً، أو إضافة لمعروف، أو تجاوزاً لمألوف.

من حقهم أن يتزعوا لرؤية الجديد، فقد استبد بهم الملل من التكرار والاجترار والرتابة والقوالب الجاهزة. لا يطيق عقل الإنسان الانحباس في القوالب الجاهزة، إنه دائم التطلع إلى الآفاق، يرنو إلى الغوص في محيطاتها، والتحليق في أجوائها، والسباحة في فضائها، والاطلاع على أنماط الحياة خارج البيئة الضيقة، والفحص عن أساليب التفكير خارج حدود القوالب المألوفة.. هكذا خلقه الله؛ حراً، طليقاً، متمرداً، باحثاً عن الحق، دائم التفكير، بل إنه ميزه بالعقل عن سائر مخلوقاته، ومنحه من وسائل المعرفة ما جعله جديراً بالخلافة في الأرض، وحمل الأمانة التي عجزت الأرض والجبال عن حملها، وأطلق يده في الكشف عن قوانين الكون وسنن الارتقاء في الحياة، لتسخيرها واستخدامها.

*أراك سرحت في الخيال، وحلقت في عوالم الفلسفة، وتناسيت الواقع.. الناس لا يهتمون بهذا الجديد الذي تعنيه، والذي ربما يرهق أعصابهم، ويسبب لهم الأرق وتعب الفكر.. إنما يريدون من الكتب ما يخفف عنهم وطأة الحياة الصعبة، ويذهب بهم بعيداً إلى عجائب العالم، وخوارق العادات، وأخبار السحر والشعوذة، والجن والعفاريت، أو يدخل في صميم حياتهم، فيعلمهم صنوف الطبخ، وطرائق الزينة، والتغلب على الخجل، وسيكولوجية التكيف، والنجاح في الحياة، وطرق تحصيل الثروة.

*لكلٍّ جمهوره ورواده، وحتى هذه الكتب الترفيهية لا بد من أن تتجدد.. فالحياة لا تكف عن التطور والتجدد، وهنالك الباحثون، وطلبة الجامعات، وأقسام التزويد في المكتبات، كلهم يبحث عن الجديد.

*كان ذلك في قديم الزمان، أعني ستينيات هذا القرن، أدركت فيها موزعاً في بلد عربي يفوض كل ناشر أن يبعث إليه تلقائياً من جديده بكمية يحددها له، حسب تقديره لرواج إصدارته، تصل أحياناً إلى ٥٠٠ نسخة وأكثر. وكان هذا الجديد يأتيه من كل حدب وصوب، بكراً، طازجاً، يتهافت عليه الناس من عشاق الجديد، ويلتهمونه.

وأدركت فيها مؤسسات تربوية، كانت تطلب من الناشرين تزويدها بنماذج من إصداراتها الجديدة لتقويمها، واختيار ما تراه صالحاً لمكتباتها المدرسية، وتقدير المستوى الذي

تصلح له، فإن اختارت عنواناً للمرحلة الابتدائية طلبت منه خمسة عشر ألـف نسـخة، أو عنواناً للمرحلة الإعدادية طلبت منه خمسة آلاف، أو عنواناً للمرحلة الثانوية طلبـت منـه ألفين.

وأدركت فيها مراكز ثقافية، ومكتبات عامة وجامعية، ترصد الجديد، وتحرص علـى التزود منه بكميات متفاوتة.

وأدركت فيها قارئين وباحثين يرتادون المكتبات بحثاً عن الجديد.

سقى الله تلك الأيام، لم تكن فيها (موضة) معارض الكتاب قد درجت، لكل ناشر الجديد، كان يتمتع بكل احترام يليق بإبداعه، وكل تشجيع من مؤسسات وأفراد يرقبـون جديده ويلتهمون ما ينشره.

*مالي أراك قد أوغلت في إطراء سالف الزمان، كمن أدركته الشيخوخة، فهـو يجتـر ذكرياته، ويعيش حاضره في ماضيه، ويسب الزمان وما آل إليه من الفساد؟ عهـدي بـك رافضاً لتشاؤم القائلين بفساد الزمان، وبانتكاس التاريخ البشري، موقناً بارتقـاء البشـرية، وكفاحها للتقدم نحو الأفضل.

*نعم هو ما تقول، لكن تقدم البشرية ككل لا ينفي تقهقرها في بعض المواطن، وإلا لمـا عرفنا في التاريخ ظاهرة الدورات الحضارية، تبزغ شمس الحضارة على أمـة إبـان شـبابها وتوقدها، ثم تطمئن إلى إنجازاتها، وتخلد إلى الراحة والدعة، فتأفل عنها شمـس الحضـارة، لتشرق على أمة أكثر شباباً واستعداداً للإبداع {وَتِلْكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَـيْنَ النّـاسِ} [آل عمران: ٣/١٤٠].

*عُدت إلى التحليق والشرود من جديد، ماذا عن المعرض، وماذا سيكون دورك فيه؟!

*لقد بذلتُ كل جهد لأفاجئ جمهور المعرض بجديدٍ لم يروه من قبل، نحو مئة عنـوان (جديد) صدر بين الدورة السابقة للمعرض، وهذه الدورة.. الشركات الصناعية الكـبرى، تدخر للمعارض إبداعات واختراعات، تحبسها عن السوق لتفاجئ بها جمهـور المعـرض، وبدون هذه المفاجآت لا يكون للمعارض قيمة.. الكل في المعارض يتحدث عن الجديـد، فالقديم يعرفه ولا حاجة به لزيارة المعرض للاطلاع عليه.

بعض العناوين التي سأعرضها لم يجف حبرها بعد، تكبدت عناء ونفقـات شـحنها بصحبتي لأفاجئ بها زوار المعرض.

سأخصص لجديدي ركناً بارزاً يشد انتباه الزائر، وقد أفردته في قوائم خاصة سأقدمها له، وأعددت له نشرات التعريف وملصقات الإعلان، وسأتولى بنفسي المزيد من التعريـــف به.

*ما أكثر ما تستسلم للأحلام وتستبد بك الأوهام؟! هل نسيت خيبة آمالك في معارض سابقة، أم أنت تتجاهلها؟! هل كانت القوائم والطلبات الجاهزة التي يقدمها لك الكثير من الزوار تعبأ بجديدك؟! كم مرة حاولت أن تقدم للزائر البديلَ الأحدث، فلا يزيد علـــى أن يكرر طلبه المسبق الصنع، للكتاب الذي ألفه، فلا يرضى عنه بديلاً؟! ألم تقتنـــع بعـــد أن قارئك تقليدي لا يكترث لجديدك؟

هل صدقتَ مديري المعارض الذين يحثونك على رفع نسبة معروضاتك من الجديد، ثم لا يبذلون أي جهد من أجل التعريف بهذا الجديد، وإبرازه للزوار، وحثهم على اقتنائه؟

ثم ما هو مفهوم الجديد؟! ألا ترى أنه مختلف بينك وبينهم؟! أو لم يرحـــب منظمـــو المعرض بالجديد القديم، أعني القديم الذي تتبدل فيه سنة الطبع وأحياناً رقم الطبعة، دون أي تعديل على المضمون؟!

خذ مجلةً من المجلات التي تلتزم بعرض جميع الإصدارات الحديثة للمشاركين فيها، كم عنواناً من هذه الإصدارات الحديثة، ينطبق عليه مفهوم الجديد؟! بل كم عنواناً تراه مكـــرراً عند عدد من الدور، ولا فرق بين طبعة وأخرى، سوف تبدل اسم الناشر، وأحياناً صـــفّ جديد، وتحقيق (لجنة الدراسات والتحقيق) في الدار؟!

*ما نسيت شيئاً من ذلك، ولا أنا بالذي يستسلم للأحلام.. إنني أومن أن لا تقدم لأمـــة ولا نهوض إلا بمقدار ما تقدمه من إبداع، وأننا نعيش الآن فترة التحول البشري إلى عصـــر المعلومات، وأن تقدم الأمم في هذا العصر لن يكون بمقدار ما تمتلك من قـــوة الســـلاح أو المال، بل بمقدار ما تمتلك من ثروة المعلومات، وأن هذه المعلومات تتفجر من حولنا، وتنمو بتسارع مذهل؛ يذوي منها ويموت بقدر ما يولد فيها ويترعرع، وأن بعض هذه المعلومات يفقد قيمته العلمية، قبل أن يغادر المطبعة إلى يد القارئ.

*لماذا تصر على التشبث بالجديد، وتتحدث عن بيئات أخرى، ذات مناخـــات ثقافيـــة مختلفة، فتنفصم بذلك عن الواقع الذي تعيشه؟!

إنك تشاهد بأم عينيك انصراف الناس عن الجديد الذي لم يثبت جدارتـــه بعـــد، إلى التراث الذي أشبع نقداً وبحثاً، فاطمأنوا إليه ووثقوا به؟ كم سنحتاج مـــن الوقـــت حـــتى تستطيع إقناع الناس بجديدك، وإحلاله محل القديم الذي ثبت واستقر؟

و لم كل هذا الولع بالجديد؟! ألا ترى كلف الناس بالقديم، يهتمـــون بـــه أثـــراً، أو فولكلوراً، ويبذلون لاقتنائه الغالي والنفيس؟!

ألم نقرأ قول (كون) ((إن الفكرة الجديدة لا تنتشر في الجيل الذي ينتجها، بـــل في الجيل الذي يليه))؟!

*لست ضد التراث، إنني أعشقه، وشديد الكلف به، والتقدير للأسلاف الذين أبـــدعوه، والرغبة في التواصل معه، والاستناد إليه، لتنميته وتطويره وحذف ما تكرر أو فات أوانه منه، كي يبقى جديداً على مر الزمن، لا يخلق من كثرة الرد.. إنني أنظر إلى الجبل الذي يكتفـــي بالجهود العلمية للآباء، لا يضيف إليها لبنات جديدة، على أنه جيل عاطـــل عـــن العمـــل والإبداع، يمكن للتاريخ أن يتجاوزه ويهمله وينساه.

أجدني مضطراً للكف عن هذا الجدل دون أن أصل فيه إلى حل حاسم لمشكلة الجديد وذلك لأمرين:

أولهما الصداع الذي أَلَمَّ برأسي بعد هذا الحوار الحاد مع الذات.

وثانيهما أن رفيقي الذي كان نائماً بجانبي أخذ ينبهني إلى قرب هبوط الطائرة بنا على أرض الواقع.

ومعاذ الله أن أكون (ضد الجديد).

عندما تغيب المعايير

حدثني صديق فاضل؛ عائداً متقاعداً من أعمال هامة شغلها في الخارج، في مجـــالات الإدارة وتقنياتها الحديثة، وتخطيطها ومعاييرها..

حدثني أنه سوف يتخذ لنفسه مكتباً يساعد فيه رجال الأعمال على اتباع الخطـــوات اللازمة التي تؤهلهم للحصول على شهادة (ISO9000) التي باتـــت مطلبـــاً أساســـياً للشركات، لكي تستطيع بموجبها أن تدخل السوق العالمية.

قلت: وما عسى هذه الشهادة أن تفيد الشركات في السوق العالمية؟!

قال: إنها سوف تغني المؤسسة التي تعتزم التعامل مع أي شركة عن مرحلة طويلة مـــن الاستعلام عنها، ومعرفة مدى امتلاكها لأنظمة تضمن جودة منتجاتها، وتؤهلها لتطويرهـــا، كما تجنبه التورط في تجارب فاشلة مع شركة تتقن فن التغرير الإعلامي، الذي يقوم علـــى ادعاءٍ للجودة لـــيس لـــه ظـــل في الواقـــع، ولا توثيـــق مـــن طـــرف آخـــر محايـــد.

قلت: وهل الطرف الآخر المانح لشهادات الجودة موضوعي ومحايد، ويمكن لقـــراره أن يحوز ثقة المؤسسات، وما الضمان لذلك؟!

قال: ربما يكون لتعدد المنظمات المانحة، واختلاف جنسياتها، أثر في تكوين احتكارات تتشدد أو تتراخى حسب دوافعها الخاصة وتعترف (ISO)- وهو المختصر الـــذي يمثـــل الأحـــرف الأولى مـــن اســـم (المنظمـــة الدوليـــة للمعـــايير INTERNATIONAL ORGANISATION FOR STANDARDISATION) – بعدم وجـــود آليـــة معتمدة منها لتأكيد الاعتراف المتبادل بين المؤسسات التي تتمتع بحق إصدار شهادات تطابق أنظمة الشركات مع مواصفات (آيزو)، وعلى الزبون أن يتأكد من المجموعة التي تنتمـــي إليها المؤسسة المانحة للشهادة، وسمعتها الدولية، ومن التزام الشركة المعنية بالمنظومات الـــتي حصلت بموجبها على الشهادة، وله في سبيل ذلك، أن يطلب الاطلاع على دليـــل طـــرق

العمل في الشركة (PROCEDURE MANUAL) وتعليمات التشغيل (WORK INSTRUCTIONS) للتأكد من صدقها وكفايتها.

ولقد تهافت رجال الأعمال على هذه المؤسسات المانحة، في سبيل الحصول على شهادتها التي أخذت شكل جواز مرور لهذه الشركات إلى السوق، وعلى اختلاف أنشطتهم الصناعية أو التجارية أو الفكرية أو التربوية أو الإدارية أو الخدمية، حتى إن الناس باتوا يعتقدون أن السوق العالمية، يوشك أن تستقبل في مطلع القرن الحادي والعشرين مؤسسة لا تحمل شهادة تطابق أنظمتها مع مواصفات (آيزو).

قلت: إذا كان الزبون لم يستطع من خلال هذا الشهادات أن يستغني عن التثبت من صدق وكفاية المنظمة المانحة، وعن التأكد من أنظمة التشغيل في المؤسسة التي يعتزم التعامل معها، فما جدوى هذه الشهادة؟!

أوليس في تراثنا ما يكفي لحث الناس على الالتزام بالجودة، والامتناع عن الغش والتغرير؟! وهل ثمة أبلغ من قول الرسول ﷺ ((إن اللّه يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)).

((ومن غشنا ليس منا)) [رياض الصالحين، الإمام النووي، دار الفكر، دمشق الحديث ١٥٧٩]

أو لم يكن تراثنا القريب حافلاً بالأخلاقيات الحِرفية التي كان يرعاها عميد الحرفة (شيخ الكار)؟

هل نحن بحاجة إلى شهادات (ISO 9000) لكي نتابع أعمالنا بما تتطلبه من إتقان وجودة، فنقيسها ونعايرها طبقاً لمعاييرنا الخاصة؟!

قال: لقد انقرض نظام الضوابط الحرفية التي كان يصونها عميدُ الحرفة وفقاً لتقاليدها الراسخة، وأصبح كلٌّ يعمل على شاكلته، إلى أن قام نظام المعايير الجديد، وفقاً لتقنيات العصر وآلياته.. وتلك سنة الحياة والتطور.

أما القيم التي ينطوي عليها تراثنا، فإنها أحرى أن تتشكل عندنا أساساً متيناً لنظام جودة ينطلق من أعماقنا، قبل أن تلجئنا إليه متطلبات السوق.

ودَّعَني صاحبي، وتركني في خلوةٍ مع النفس، أثارت لديَّ تساؤلات كثيرة:

-لِمَ يتخلف الناشرون عن التقدم إلى المنظمات الدولية، التماساً لشهادتها باتباع أنظمة مطابقة للمواصفات العالمية للجودة؟!

-وإذا كانت صناعة النشر العربية ذات خصوصياتٍ تنجم عن ارتكازها بنسبة كبيرة إلى التراث، فلماذا نراها تهمل أهم ما ينطوي عليه هذا التراث وهو (المعايرة)، التي عبر عنها القرآن الكريم بمصطلحه الخاص (الميزان)، وربطه بالكتاب في قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥/٥٧]؟!

-وما الذي يحدث لصناعة النشر، عندما تغيب عنها المعايير، ويغيب (الميزان)؟!

ويتوقف شريط التساؤلات الذاتية عند هذا السؤال الأخير، وتتدفق على مخيلتي الخواطر، تعرض صوراً مما آلت إليه حال الكتاب بسبب غياب (المعايير / الميزان)؟!

-عناوين خادعة على أغلفة براقة، توهم أن الكتاب قد عني بترجمته مكتب الترجمة والتعريب في الدار، أو أنه قد قامت بتحقيقه لجنة من كبار العلماء، أو أنه سيلقن القارئ موضوعه في سبعة أيام، أو أنه سوف يدربه كيف يطبخ، وكيف يسبح، وكيف يدير أعماله، وينظم أوقاته.. فإذا فتح الكتاب خاب أمله، ولم يجد ترجمة ولا تحقيقاً ولا إبداعاً ولا تعليماً. إنما هي دعاوى زائفة.

-دور نشر تستخدم (أفعل التفضيل)؛ أكبر وأعظم وأضخم وأعرق، فإذا دخلت عليها من الباب خاب أملك.. فلا مؤهلات ولا أدوات.

-دوائر للرقابة فرضت وصايتها على القراء حفاظاً على أمنهم الثقافي؛ تأمر وتنهي وتسمح وتمنع، فلا تدري لِمَ سمحت بهذا ولَمَ منعت ذاك، وحرمت القارئ من مواكبة الأفكار والأحداث.

-مؤسسات لتشجيع الثقافة والإبداع، تمنح الجوائز، وتوزع الشهادات، وتقيم حفلات التكريم، فتحار على أية شروط، وبأية موازين منحت هذه الجوائز، ووزعت هذه الشهادات، وأقيمت هذه الحفلات.

ولو أنه وُضع (الميزان)، وحُددت له المعايير، لانتفى خداع العناوين، ولم يحرم القراء إلا مما اتفِق على ضرره وإساءته، ولم يكرَّم غير الأكفاء، ولم تمنح الشهادات لغير من يستحقها.

لقد اتبع بعض الدوائر الثقافية في عالمنا العربي أنظمة للمعايرة وضبط الجودة، ولجاناً للتحكيم تحمل (الميزان)، وتحكم من خلاله، فكانت قراراتها موضع الاحترام والتبجيل، وحققت أهدافها المرجوّة.

وغابت المعايير عن بعض هذه الدوائر، فكان لأحكامها أسوأ الأثر في تثبيط الإبداع، والتخلف عن السباق في ميادين الجودة والإتقان والتطوير.

إن صناعة (البيان)، هي الأحوج إلى (الميزان)، لأن في ارتقائها ارتقاء الأمم، ولأنها هدف الخلق والوجود: {الرَّحْمَنُ (*) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (*) خَلَقَ الإِنْسانَ (*) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (*) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (*) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (*) وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ (*) أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (*) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ} [الرحمن: ٥٥/١-٩].

إدمان المعارض

أفهم أن يذهب الناشر إلى معارض الكتاب، لمد جسور مباشرة بينه وبين قرائه، ويعرض عليهم جديده، ويعرفهم بكتبه، ويطلع على اتجاهاتهم الفكرية والأدبية، واحتياجاتهم الثقافية والعلمية، ويرصد مدى تقبلهم لإصداراته وملاحظاتهم حولها.. فهذا هدف تبذل لأجله النفقات وتستعذب المتاعب.

أفهم أن ينشط الناشر للمشاركة في المعارض، لتوثيق علاقاته مع زملائه الناشرين، والاتصال بالمراكز الثقافية والمؤسسات التعليمية والجامعات والترويج لكتبه فيها.. فهذا أيضاً هدفٌ معقول تهون من أجله الصعاب.

أفهم أن يحترف الناشر المشاركة في المعارض لمجرد تسويق كتبه، وتحقيق رقم عالٍ في المبيعات، يغامر له بحمل مئات الكراتين وبضعة الأطنان من الكتب، يطرحها بالمزاد، ويراوده تجار الجملة في أسعارها في ساعة العسرة قبل انتهاء المعرض، فيبيعها بثمن بخس، ويتفادى تخزينها لمعرض قادم أو إعادة شحنها.. فلهذا النوع من المعارض محترفون من الناشرين.

أفهم أن يسافر الناشر إلى المعارض، للسياحة والاطلاع على البلاد، أو بحثاً عن الأضواء والوجاهة وحفلات الاستقبال والتكريم، مما قد يغري البعض بشد الرحال، والتنقل بين العواصم.

أفهم أن يبذل الناشر وقته وماله وعرقه لتحقيق واحد من هذه الأهداف.

ما لا أفهمه أن يتحول المعرض إلى هدف بذاته، بدلاً من أن يكون وسـيلة لتحقيـق هدف.

عند ذلك تصبح المعارض عادة، وتصبح ممارستها إدماناً، يلوب له الناشـر، ويسـعى جاهداً إليه، ويبذل لأجله كرامته بالإضافة إلى ماله وعرقه.

ما إن يشير أحد إليه بدعوة إلى معرض حتى يهرول ملبياً، غير عـابئ بشـروط، ولا مستفسر عن إمكانات، ولا مستوثق من ضمانات.

قد يكون تنظيم المعرض لتحقيق أهداف ثقافية نبيلة، وقد يكون استثماراً تجارياً محضاً، وقد يكون وجاهة وسمعة، وقد يكون لأغراض دعائية وإعلامية.. لا حرج.

قد يكون منظم المعرض جهة حكومية، أو مؤسسة رسمية، أو شركة تتمتـع بكفـاءة عالية وخبرة تليدة، وقد يكون المعرض مغامرة فردية دون مؤهلات ولا خبرات.. لا فرق.

قد تأتي الدعوة مباشرة، وقد تأتي همساً بالهاتف من صديق، أو نسخة عبر الناسوخ (الفاكس) من زميل، وقد تحجب فيبذل الناشر ماء وجهه استجداء لها.. لا بأس.

وفي المعرض، قد يمنح جناحاً في زاوية مهملة، وقد لا يكون جناحه مجهزاً بشيء مـن وسائل العرض، وقد يرمى به خارج الصالة لعدم كفايتها لاستيعاب المتـهافتين.. ليسـت مشكلة.

وخلال المعرض؛ قد تغيب الإدارة فلا يُرى لها أثر إلا عند جباية الرسوم، وقد يتلقـى الناشر أوامرها الفوقية عبر المذياع، وقد تتخبط الأوامر بشأن الدوام، وقد تأمره بـالخروج الفوري والعودة لترتيب الجناح بعد منتصف الليل.. لا يهم.

إنه الإدمان..

إدمان المعارض الذي حوَّل الناشر إلى بائع متجوِّل متسوِّل، لا يقر له قرار على مـدار العام، ولا يعود من ترحاله بطائل، إلا إذا بذل كرامته، وفقد احترامه.

ألمثل هذا وجدت المعارض؟!

أليس عدم مثل هذه المعارض خيراً من وجودها؟!

ألم يأن للناشر أن يؤدي دوره البارز في معارض الكتاب بوصفه شـريكاً أساسـياً في نجاحها؟!

ألم يأن للاتحاد العام للناشرين العرب أن يصون كرامة الناشر، بالتنسيق الكامل مع المنظمين، في المواعيد والشروط والتسهيلات والتجهيزات والضمانات، وبالمشاركة الفعالة في التنظيم والإدارة والتمثيل والإجراءات؟!

عند ذلك يمكن أن تستعيد المعارض ألقها، ويستعيد الناشر كرامته، ويرتفع مستوى مشاركته، وتتحقق للثقافة أهدافها.

من للدب يخرجه من الكرم؟!

ربما كان من الأفضل — من أجل إجابة مجدية عن هذا السؤال — أن يطرح على وجه آخر: من أدخل الدب إلى الكرم؟! من المستفيد من دخول الدب إلى الكرم؟!

الذي حدث أن أصحاب الكرم كانوا يعيشون داخل كرمهم في رغد وهناء، عيشاً لا يخلو من بعض منغصات وإشكالات تحدث بين الحين والحين، يحلّونها حسب أعرافهم وما توارثوه من قيم وتقاليد يحكمونها فيما شجر بينهم.

وكانوا يقدمون للدب، خارج السور، بعض الثمرات من كرمهم ليأمنوا شره، وليدفع عنهم طمع الطامعين، وغائلة الحاسدين.

ثم إن أمر الدب قد تغير، فقد كان يرمق أصحاب القرية من بعيد، ويتلمظ لمشاطرتهم عيشهم، ويرى نفسه أحق بتفيؤ ظلال كرمهم، وجني ثمراته منهم.. فتدبر أمره، ورأى أن لا يهيجهم، فيؤلبهم عليه، ويوحد صفهم ضده، وأن افتعال قضية تسوغ تدخله، ودعوته من

قبلهم لإصلاح ذات البين، أدعى لفرض احترامه عليهم، وقبولهم بل ترحيبهم به وتصفيقهم له.

فلم يجد حيلة أفضل من أن يغري بينهم العداوة والبغضاء ويبذر فيهم بذور التحاسد والتناحر، ويقتل فيهم روح الحمية والإباء، فيعدو بعضهم على بعض، ويصفق رعاعهم إعجاباً بشجاعة المغامر الطامح، بينما يلوذ الحكماء منهم بالصمت اجتناباً للفتنة والفضيحة، ويخذلون المبغي عليه فلا يجد بداً من استدعاء الدب من خارج الكرم ليفصل بينهم، ويتحقق للدب المراد.. وهكذا كان.

وارتاح الدب لمهمته الجديدة، فقد بات سيد الكرم وحامي حماه، يفصل بين أصحابه كلما نزغ الشيطان بينهم، ووجد أن وجوده في الكرم مرتبط باستمرار الشيطان في هذا النزغ، وأن أي استرخاء من الشيطان أو تقصير في أداء وظيفته، سيفقد الدب مسوغ وجوده. فقرر أن يتحالف مع الشيطان، أو يتقمص روحه، فيصبح كأنه هو، ويقوم عنه بأدواره.

ومضى الدب في مهمته الشيطانية، يختلق الأزمات، وينبري لوأدها، ويشعل الحرائق، ويهب لإطفائها، ويتقاضى أجوره أضعافاً مضاعفة، حتى ناءت كواهل أصحاب الكرم بتسديد فواتيره وعجزت محاصيلهم عن الوفاء بمطالبه.

وكان من عادة أصحاب الكرم كل عام، أن يصوموا شهر رمضان كلما أهل عليهم هلاله، فيمسكوا في أيامه عن الطعام والشراب، وتصفو نفوسهم، وتتطهر قلوبهم، وتنشط أفئدتهم للتفكر والتدبر، فيكفّ الظالم منهم عن ظلمه، والجار عن إيذاء جاره، ويتحلى بمحاسن الأخلاق، وتشف نفسه وترهف أحاسيسه، فيألم لألم إخوانه، ويحزن لحزنهم، ويحنو عليهم.

وكلما دنا رمضان، تنتاب الدب – بعد أن تقمص روح الشيطان، واحترف حرفته – خشية ورعدة أن يؤتي رمضان أكله، ويفعل فعله في نفوس الصائمين، فينتبهوا لمكر الدب ويبطلوا أحابيله. فقرر عند اقتراب أول رمضان أن يقوم – إلى جانب مهماته في الحراسة – بمهمة المُسحّر يوقظ النائمين للسحور وصلاة الفجر، فيزداد اطمئنانهم إليه وإلى ورعه وتقواه وحبه للخير، فلم يجد – بحكم انتمائه إلى فصيلة الدببة – غير متفجرات نارية، يضرب بها

فتنفجر؛ تضيء السماء برقاً يخطف الأبصار، وتملأ الدنيا رعداً يذهب بالأسمـــاع، وتـــذرع الأرض دماراً وخراباً.

ويصحو أصحاب القرية على صواريخ المسحر، فتعاف أنفســـهم طعـــام الســـحور، وينطلقون إلى المساجد لأداء صلاة الفجر.. فهذا إمام يقيم فيهم الصـــلاة قـــائلاً: ســـووا صفوفكم! تراصوا، لا تتركوا للشيطان، فرجات بينكم!!.. وهذا خطيب يقف بعد الصلاة يقص عليهم قصة قريش عندما تداعت قبائل منها إلى حلفٍ اجتمعوا له في دار عبد الله بـــن جُدعان لشرفه وسنه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم، ممن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك حلف الفضول، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ((لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت)) [السيرة النبوية لابن هشام: ج١ ص١١٩-١٢٠، دار الفكر – بيروت].

وذلك محدث يذكر لهم حديث السفينة، التي شرع ركابها في أسفلها بخرقهـــا ابتغـــاء الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعـــاً، وإن أخذوا على أيديهم، نجوا ونجوا جميعاً)) [رياض الصالحين: الحـــديث١٨٧، دار الفكـــر، دمشق].

وتعتلج المواعظ في نفوسهم، ويذكرون ما قرأه الإمام عليهم من كلام الله في الركعـــة الأولى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣/٣] وفي الركعة الثانية {وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦/٨] ويتداعى إلى ذاكرتهم حـــديث كانوا قد سمعوه عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ((مثل المؤمنين في توادهم وتـــراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)).

فيعودون من ذلك كله بالجواب الشافي عن أسئلة البداية:

من أدخل الدب إلى الكرم؟!

*أدخله أصحاب القرية، الذين قدموا له الذريعة والمسوغ؛ فئة اخترقـــت الحـــدود، وقفزت فوق الحواجز، تعرض عضلاتها وتباهي بقوتها.

وفئة قعدت عاجزة عن نصرة المظلوم، والأخذ على يد الظالم ومنعه من خرق السفينة، وتعريض أهلها جميعاً للخطر. {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً} [الأنفال:

٢٥/٨] فكانوا من الذين {كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كـــانُوا يَفْعَلُـــونَ} [المائدة: ٧٩/٥].

-من للدب يخرجه من الكرم؟!

*الذي أدخله عليه أن يخرجه:

أ- الذي قدم له الذريعة، يجب أن يسقطها ويحرمه منها، ويعتذر لإخوانه عـــن فعلتـــه، ويطمئنهم إلى التزامه بحسن جوارهم.

ب- الذين توانوا عن نصرة المظلوم، عليهم أن يقفوا إلى جانبه، ويقدموا له الضـــمانات الكافية التي تهدئ من روعه، وتطمئن بها نفسه.

ج- أصحاب القرية جميعاً، عليهم أن يبرهنوا على أنهم كالجسد الواحد؛ لن يتركـــوا في صفوفهم فرجات للشيطان، وعليهم أن يثبتوا للدب، أنهم الأجدر بحل مشـــكلاتهم وفـــض نزاعاتهم، ولا حاجة بهم إليه.

د- وعلى الناشر العربي – الذي لا يزال الأرسخ تأثيراً والأكثر توثيقاً من بـــين وســـائل الإعلام – أن ينشر قصة (الدب والكرم) لكي تكون درساً لأصحاب القرية ولأحفـــادهم من بعدهم، يتعلمون منه قيمة التضامن، ورص الصفوف، وسد الثغرات والفرجـــات الـــتي يمكن أن يتسلل منها إليهم الشيطان.

فهرس عام